المُحَاكَمَة
و
لَمْسَةُ الشَّر

obeikan.com

الكتاب : المحاكمة / لمسة الشر
المؤلف : إيمان الدواخلي
تصميم الغلاف : عمرو الحو
تدقيق لغوي : إيمان الدواخلي
رقم الإيداع : 2014/19600
الترقيم الدولي : 978-977-6436-89-3
الطبعة الأولى : 2014

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

المُحَاكَمَة (رواية)

هبة الله محمد أحمد حسن

و

لَمْسَةُ الشَّر (رواية)

محمود الجعيدي

الروايتان الفائزتان بمسابقة التكية للسنة الرابعة (المكان)/فرع الرواية

تحكيم أ. د. سيد البحراوي

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

هذا الكتاب هو نتاج مسابقة التكية السنوية للعام الرابع، فرع الرواية، والذي فازت فيه ثلاث روايات. بخلاف مجموعة قصص فازت في فرع القصة ونشرت بعنوان "مارا تخبز الحياة عند نهر إيتاجي"

كانت رواية "المحاكمة" هي الفائزة بالمركز الأول عن جدارة، فقد تمكنت الكاتبة هبة الله محمد من تقديم عمل راقٍ يحسب في تاريخها، ويختلف كثيرا في سياقه وفلسفته عن الشائع في الإصدارات الحديثة على الساحة.

المركز الثاني استبعد من النشر، حيث إن كاتبه نشره بالفعل بعيدا عن المسابقة

والمركز الثالث كان من نصيب رواية بوليسية جيدة للكاتب محمود الجعيدي، بعنوان "لمسة الشر" تمكن فيها من تتبع الشخصيات وعدم إفلات الخيوط من يده، ليقدم حبكة ومنطقية مقبولة للقارئ إلى حد بعيد.

جدير بالذكر أن المسابقة أصدرت في أعوامها الثلاثة السابقة ثلاثة أعداد أولها "جبَّانة الأجانب" عن أدب الرعب ذو الطابع المحلي. وثانيها "فانتازيا الثورة" عن رفض كل القبح في العالم مصاغة في قالب فانتازي. ثم "عندما يعزف الشيطان الناي" متخذة قالب التاريخ البديل.

في الإصدار القادم للمسابقة بإذن الله، نعدكم برواية رومانسية ذات أفق إنساني رحب، كما هو موضوع المسابقة..

وبكم نستمر

إيمان الدواخلي

obeikan.com

المحاكمة

هبة الله محمد

(المركز الأول)

obeikan.com

obeikan.com

(1)

رجل غريب

كان المكان يضج بالحركة والصخب؛ أكتاف متلاحمة.. ضحكات وبكاء.. أعقاب سجائر وبقايا أوراق متناثرة..

خرج الأستاذ من القاعة ينضح العرق من جبينه، وقف لحظات يجففه بمنديل ورقي، ثم خلع معطفه وكوره أسفل إبطه، عندما فوجئ بوجه غريب يظهر أمامه سائلا في اهتمام:

ما الأخبار يا أستاذ؟

نظر إليه في عدم فهم للحظات، قبل أن يجيب:

الأخبار!!.. آه.. الأخبار.. إنها جيدة..

لأسف لم أستطع حضور جلسة اليوم.. أطلبت التأجيل ثانية؟

التأجيل!!.. طبعا.. التأجيل..

قالها مواصلا تجفيف عرقه، قبل أن يبادر هو بالسؤال هذه المرة:

ولكن لمَ لم تستطع الحضور؟

لقد كنت أحضر جلسة أخرى في نفس التوقيت..

جلسة أخرى!!!.. هل أنت.....؟

محام.. آ.. ليس بالضبط.. أنا الأستاذ أحمد رفعت.

مد هو يده مصافحا وهو يجيب:

أهلا وسهلا.. وأنا أتساءل أين رأيتك من قبل!

ها قد عرفت..

وأين يقع مكتبك؟

مكتبي.. آ.. أتعرف المدرسة الإعدادية الجديدة.. أنا مدرس بها..

مدرس!!!.. وما شأن.....

وقبل أن يكمل سؤاله، وجد ذلك الكائن الغريب ينسحب من أمامه في لحظة، دون أن يفهم من هو، وما الذي يريد. انتابه القلق للحظة؛ لعله من طرف محامي الخصم، لكنه على أية حال لم يخبره بشيء ذي أهمية.. طلب التأجيل.. وما المشكلة في كونه أخبره بهذا.. إن محامي الخصم نفسه يعرف أنه طلب التأجيل.. ليس شيئا جديدا، ولا يحتاج إلى جاسوس سري لمعرفته. لعله كان يقصد محاميا آخر غيره، وعندما انتبه إلى خطئه انسحب بهذا الارتباك. ولكن لقد أخبره أنه كان يحضر جلسة أخرى.. أيكون محاميا بالفعل؟.. وإن كان كذلك، فلمَ يخفي هذا؟.. قد يكون له أكثر من قضية تنظر في نفس الوقت.. ما المانع؟.. إن هواة المشاكل في هذا العالم أكثر من غيرهم بالتأكيد. ولكن لمَ يشغل نفسه بكل هذا؟.. لو فكر في كل حادث تافه يمر به فلن ينجز شيئا.. ليكن عميلا أو محاميا أو نصابا، ليكن ما يكونه، فلا يهمه هذا في شيء.. المهم أنّه ابتعد عن طريقه.. هز كتفيه، ثم جفف عرقه ثانية، قبل أن يتحرك مبتعدا.

***

ابتعد أحمد في ارتباك عن ذلك المحامي الذي فاجأه بسؤاله.. يا لغبائه.. كان يجب أن يتوقع مثل هذا السؤال، ما دام قد أخبر الرجل أنه كان يحضر جلسة أخرى. وجد نفسه أمام الدرج المفضي إلى الطابق الرابع، فصعده دون وعي، ثم تذكر أن موعد الجلسة التالية قد اقترب، فنزل ثانية لينتظر أمام القاعة. هذه القضية بالذات وصلت إلى مرحلة السخونة، وأصبح حضورها متعة ما بعدها متعة. صحيح أنه يشعر بالجوع، لكنه يستطيع أن يحتمل. كان هناك بعض المحامين والمحاميات تناثروا في الممر قريبا من القاعة. تفرس في وجوههم باهتمام، فلمح وجها شابا تبدو السذاجة في ملامحه؛ هذا من الطراز الذي يطلب التأجيل دائما مثل الأخ السابق.. لقد صار يعرفهم على الفور.. سيكون من المسلي أن يتحدث معه قليلا.

اتجه إلى المحامي الشاب، الذي كان مستندا بظهره إلى الجدار، وقد ظهر الإعياء على ملامحه:

أهلا.. أهلا يا أستاذ..

مدَّ الشاب يده في تردد مصافحا الكف الممدودة، وهو يرد بصوت خافت:

أهلا!

هل سترافع اليوم؟

آه.. نعم..

وما الذي تنوي فعله؟

رماه المحامي الشاب بنظرة حذرة، قبل أن يقول في اقتضاب:

لم أحدد بعد.

كيف والجلسة اليوم؟

ربنا يسهل.

آه.. هذا الشاب الغرير لا يثق به إذن، ويحاول أن يصطنع أنه ضليع في المهنة ولا يسهل خداعه.. حسنا، ليفعل ما يريد، ولكنه متأكد مئة بالمئة من كونه سيطلب التأجيل، لأن المحامي الكبير غير موجود.. يستطيع أن يراهن على هذا.

بالتوفيق إن شاء الله يا أستاذ..

قالها لينهي هذه المحادثة المغلقة من البداية، ويعود إلى مكانه قريبا من الباب. أخرج لفافة تبغ من جيبه وأشعلها، لينضم دخانها إلى هواء المكان الراكد. لماذا تمر الدقائق بهذا البطء؟.. عشر دقائق مرت كأنها عشر ساعات.. كل ثانية تأخذ حقها كاملا وزيادة.. إنه يحترق فضولا ليعرف ما الذي سيحدث في هذه الجلسة، وهذا الحر يلهب فضوله أكثر، ويزيد من ظمئه لمعرفة ما يحدث. فكر في أن يطل من إحدى النوافذ، لعله يتصيد أي نسمة هواء عابرة، خاصة وأنه بدأ يختنق من دخان سيجارته نفسها. لكن بمجرد نظره جهة النوافذ، عرف أن عليه أن ينسى الأمر تماما، فلقد تكدست النوافذ بأجساد نصفها مدلى

تقريبا إلى الخارج. هذا سبب ثقل الهواء إذن.. ألقى بالسيجارة على الأرض ودهسها بحذائه. على أية حال، لو كان قد تحرك للوقوف بالقرب من النافذة، لكان قد فقد موقعه الاستراتيجي المتميز بالقرب من القاعة التي ستفتح بعد قليل. نظر مرة أخرى إلى ساعته.. تبا لهذه الساعة.. أتراها خربت؟.. إن عقاربها لا تتحرك تقريبا، باستثناء عقرب الثواني البطيء.. البطيء. أخذ يرسم بحذائه أشكالا هلامية على طبقة الغبار التي تغطي الأرضية.. عبر حذاء امرأة من أمام عينيه، قبل أن يدور ليحتل الفراغ الصغير بينه وبين باب القاعة.. لم يلاحظ هو هذا في شروده مع الوحش ذي الأذرع الملتفة، الذي بدأ يأخذ مكانه على أرضية المكان مع حركة حذائه الملول. لم يفق سوى على صوت قرقعة يأتي من جواره، التفت ليجد امرأة تقشر بعض الفول السوداني، وتلوح به في فمها كقردة محترفة. رماها بنظرة طويلة.. كيف استطاعت هذه المرأة أن تقفز إلى هذا المكان، وتكتسب هذه المساحة دون أن يلحظها:

أتأخذ؟

آ.. كلا.. شكرا.

فهزت رأسها بلامبالاة، وواصلت تقشير الفول السوداني باهتمام شديد، مطوحة ببعض القشر على الأرض، وبعضه في حقيبتها.

اكتست نظرته بالمزيد من العدائية.. أتحتل مكانه هكذا دون أية إنذارات سابقة؟.. ألم يكن من الأولى بها أن تستأذنه؟.. ألم تر أنه يقف هنا، وأن المكان في الأصل مكانه؟.. حاول أن يفكر في حيلة لإزاحتها،

لكنه شعر بعقله متصلبًا تماما، كأن الحر والدخان قد زحفا إليه، وحجبا عنه أي رؤية فكرية ممكنة.. ولكن يمكنه أن.....

وفي تلك اللحظة، سمع رقم القضية يتم نداؤه، فنسي خواطره وتأهب للدخول.

obeikan.com

(2)

المرأة القردة

لم يعلم أن هناك هذا العدد الكبير من الحضور إلا عندما بدأ الدخول. كأنهم خرجوا من شقوق الأرض وفتحات الجدران، أو صبوا صبا من دورق وهمي على القاعة.. بصعوبة استطاع الحصول على مقعد في موقع متميز قريب من قفص المتهم. فرك كفيه في حماس وهو يجلس.. هذه هي المرة الأولى التي يحضر جلسة يوجد فيها المتهم في القفص. ظل يحدق في القفص منتظرا ظهور تلك المعجزة.. في الحقيقة لم يكن هو وحده من يبدي اهتماما بالأمر.. كان الجميع يتطلعون باهتمام وبشغف غير عادي إلى ذات الاتجاه الذي ينظر إليه. وأخيرا، ظهر ذلك الذي ينتظره الجميع، مطأطئ الرأس، شعره طويل؛ يكاد يلامس كتفيه، ووجهه مغطى بالشعر بكثافة، كأنما تم لصقه عليه لصقا.. بدا كقرد عملاق محبوس في قفص، لعله يمت بصلة قرابة للمرأة القردة صاحبة الفول السوداني.

أين تراها جلست؟.. تلفت حوله يبحث عنها من خلف جبال الرؤوس.. وجد أنها قد جلست في مقعد يتقدمه بصفين، في مكان ممتاز بحق. شعر بشيء من الحنق تجاهها.. مقعدها ليس متقدما على مقعده فحسب، ولكنه كذلك أسفل مروحة السقف مباشرة.. صحيح أنها مروحة هزيلة مغطاة بالأتربة وبمعجزة حقيقية ظلت معلقة في السقف دون أن تسقط على رؤوس الجالسين، ولكن هذا لا يمنع أبدا من كونها أفضل بكثير من هذا الجحيم من الأنفاس الحارة اللزجة

الذي يصطلي فيه. لم يفق من خواطره الحاقدة على المرأة القردة إلا على صوت محامي المدعي يدوي في القاعة بلهجة خطابية محترفة:

يا حضرات المستشارين.. يقولون عني إنني دائما محامي المتهم. والواقع أن أشهى شيء لدي هو الوقوف في موقف الدفاع. أما اليوم، فأنا أسعد الناس بأن أقف في وجه هذا المتهم، فإن له خلقا آخر وجبلة أخرى غير التي تعوَّد عليها الناس. إنه ببساطة ليس إنسانا.

قال هذه الجمل المتلاحقة، بينما جسده البدين يترجرج كبرميل ضخم. كان الرجل فصيحا بحق.. حتى هو، مدرس اللغة العربية، لا يستطيع أن يقول نصف هذا الكلام.. وواصل المحامي:

رباه.. أنت الذي تعلم السرائر، ومشاعر الإنسان، فأنت العليم بما شاع في قلب تلك المرأة وأولادها من الرعب في تلك الليلة وفي ذلك اليوم.. يوم قيامتهم.

كل هذا من أجل رجل ضرب زوجته!، فماذا لو كان قتلها؟.. زحف هو بعينه بعيدا عن المحامي، وركزهما على الجالس في القفص.. خيل إليه أن في عينيه نظرة شرسة متوحشة، توشك على الفتك بهذا الرجل. كان يلتهم أظافره بعصبية بالغة، كأنها السبب في كل مشكلاته.. بالفعل في تلك اللحظة بالذات بدا كقرد أرغم على الجلوس في عرض سيرك سخيف، وفي لحظة سينهال السوط على ظهره لأنه بدأ ينسى دوره البشري، وعاود التصرف كقرد، كما خلقه الله!

يقول إنها لوثت شرفه، ولهذا ظل يضربها حتى كاد يقتلها.. ولولا عناية الله، لما عاشت حتى الآن، لتكون شاهدة على جريمته. إنه لم يكتف بمحاولة قتلها، ها هو يريد أن يلطخ سمعتها. ولو كانت فيه قطرة من رجولة أو نبالة، لطاف بخلده شرف وكرامة أسرته.

بدت كلمات المحامي بعيدة.. بعيدة، حلزونية الوصول إلى أذنه، كأنها صارت خلفية لمشهد المتهم الذي يكاد يتلوى في قفصه من القلق. أمظلوم حقا هذا الرجل؟.. أخانته زوجته بالفعل؟.. لو كان الحكم بالشكل، لحكم عليه بالإعدام فورا.

جرائم بنت جرائم أولى ترتكب على الهيئة الاجتماعية.. وخير للإنسانية أن يزول هذا المخلوق عن هذه الدنيا.. فإن بقاءه مجلبة للعار وللمذلة.. بل لهؤلاء الأطفال.

بدت له العبارة الأخيرة مبتورة غريبة، كأنها مقحمة على سياق الكلام.. وما معنى جرائم ترتكب على الهيئة الاجتماعية؟.. لم يستطع أن يفهم.. لكنه تابع الاستماع باهتمام:

يقول إنه ضربها حتى كاد يقتلها.. وها هو تقرير الطبيب الشرعي يقول إنها تلقت ضربة موجهة، قصد بها أن تكون قاتلة، وليس ضربًا عشوائيًا كما قال هو. إنه يحاول الكذب للإفلات من يد العدالة.. ولكن لاااااااااا.. إنها ستطوله في أي مكان.. يا حضرات المستشارين.. إنني أطالب باسم القانون، بأقصى عقوبة لهذا المتهم.. وويل للعدالة إن لم يؤخذ هذا الحكم.

كان الأمر قد وصل إلى ذروة إمتاعه مع نهاية الخطبة، وضجت القاعة بالتصفيق.. حتى هو وجد كفيه يتحركان تلقائيا بالتأثير الجماعي. ألقى بنظرة إلى القفص، فوجد المتهم يصفق بسخرية مريرة مع الآخرين. يا له من رجل سمج وقح.. فعلا، لو أُعدم سيستريح الناس من سخافته.. لقد أصبح لا يطيق هذا الرجل القرد حقا.

كانت مهمة محامي الدفاع قد صارت عسيرة جدا مع الخطبة المتينة التي قدمها المحامي الآخر.. كان هذا عكسه تماما؛ طويلا نحيلا كعصا المكنسة.. له شفتان رفيعتان تنزلق عبرهما الكلمات دون أن تتحركا إطلاقا، كأنها تخرج من جهاز راديو. ونطق بالكلمات الوحيدة الممكنة في هذه الحالة، وهي طلب التأجيل.

ما موضوع التأجيل معه اليوم؟.. كل القضايا مؤجلة!.. كل شيء مؤجل!

بالطبع اعترض المحامي المتحمس، لكن القاضي حسم الأمر بتأجيل الجلسة.. ربما أراد أن يستريح من صداع هذين المزعجين. ولكن شهرا كاملا! ستتأجل الجلسة شهرا كاملا!.. سينتظر كل هذا ليعرف كيف سينتهي الأمر!.. هذا تشويق إلى درجة الملل كمسلسل الثامنة.

نهض في إحباط تاركا نفسه لطوفان البشر الخارجين، حتى وجد نفسه موشكًا على السقوط على السلم. بصعوبة تشبث بأحد الواقفين، الذي رمقه باشمئزاز، قبل أن يستعيد توازنه. نظر في ساعته.. ليس أمامه الكثير من الوقت، ولكنه جائع جدا.. ربما يستطيع أن يقتنص شطيرة مع كوب شاي على المقهى المجاور قبل موعد المدرسة. مرّ

مسرعا بجوار رجلين يتحدثان بصوت مرتفع.. وسمع أحدهما يقول صارخا:

لنسأل الأستاذ..

وشعر بكف توضع على كتفه، قبل أن تنتقل لتجذبه من كم قميصه. التفت بعينين متسائلتين، فقال الرجل بسرعة:

لقد رأيناك في الجلسة السابقة يا أستاذ.. وكنا نريد نسألك عن شيء..

رفع حاجبيه في دهشة، ثم هز رأسه ببطء بمعنى أنه يمكنه أن يسأل.. فقال الرجل في حماس:

ما رأيك؟.. أليس ذلك المجرم يستحق المؤبد على الأقل؟

آه.. إنه يريد سؤاله عن رأيه في القضية بصفته خبيرًا في هذه الأمور. من كثرة حضوره للقضايا صار يعرف أكثر من المحامين أنفسهم، وصار موضعا للاستشارة.. شد صدره في اعتداد قبل أن يقول:

إنه لا يستحق المؤبد فقط، بل الإعدام أيضا.. لو كنت مكان القاضي لرفضت تأجيل القضية.. لم يكن الأمر يستحق.. إنه منتهٍ تقريبا.

فالتفت الرجل إلى زميله قائلا:

أرأيت ما قال الأستاذ؟

كاد يقول عبارة أخرى في غمرة حماسه، لكن الكلام احتبس في حلقه، إذ لمح المرأة القردة تقف هناك، وتحدجه بنظرات غريبة، فالتفت مبتعدا في سرعة. ما خطب هذه المرأة؟!

***

في طريقه إلى المقهى، لم يستطع أن يكف عن التفكير في الأمر.. لم رمقته المرأة بتلك الطريقة؟.. نظرتها سامة مفزعة بحق.. أتراها قريبة ذاك المتهم؟ لها السمت القردي ذاته.. ولكن قبل المحاكمة لم تبد مكترثة بالأمر كثيرا.. ولكن لا.. لقد كانت مهتمة بالفعل، وإلا فلم احتلت مكانه القريب من القاعة..

شاردا تجاوز بائع الشطائر، لكن الجوع جعله يتذكر سريعا ويعود لإحضارها. اتجه إلى المقهى على الفور، وارتمى على أحد المقاعد.. طلب كوبا من الشاي، وفرد ورقة الشطائر على المنضدة، وقبل أن تغيب رأسه خلفها سمع صوتا مألوفا يصيح في حماس:

أهلاااااااااااااااااااااااااااااان..

رفع رأسه، ليطالعه الوجه النحيل الكالح، يرتمي على المقعد المقابل.. ابتسم هو نصف ابتسامة قائلًا:

فتحي.. أين أنت يا رجل..

أنا هنا.. أين سأذهب؟.. هل خرجت لتوك من المدرسة؟

آه.. كلا.. أنا لم أذهب بعد.. أعمل الآن في الفترة المسائية.. هل نسيت؟

كلا.. لم أنس ولكن... أما زلت تذهب للمحكمة؟

نعم.. أنا قادم منها الآن.. كانت هناك قضية اليوم أتمنى لو سمعتها معي.

لا أعتقد أنني بحاجة إلى المزيد.. إن زوجتي تنصب لي محكمة كل يوم؛ وخاصة هذه الأيام.. أنا أحسدك لأنك لم تتزوج بعد.

ولمَ لم تطلقها؟

بهذه السهولة!.. إنها تستطيع أن تخرب بيتي قبل أن أفعل...

ألم تحاول استشارة محام؟

هل تعرف واحدا؟

أجاب هو بثقة:

بالطبع، معظمهم أصدقائي الآن.. لمَ لا تقابلني غدا أمام المحكمة؟

ولكن غدا إجازة.. كل سنة وأنت طيب.

فعلا، كيف نسي هذا؟.. الخمسة أيام القادمة كلها إجازة.. لقد صار ينسى كثيرا هذه الأيام:

ربما في يوم آخر.. ولكن لم أحك لك عما حدث في محاكمة اليوم.. لن تصدق بأي تهمة كان الرجل يحاكم.. لقد كاد يقتل زوجته.. تصور.

طبعا.. طبعا يمكنني تصور هذا!

قالها فتحي، ثم أسند ذقنه إلى كفه منصتا في اهتمام.. ابتلع هو ريقه مستعدًا للسرد، قبل أن ينتفض من مكانه بسرعة.. لقد نسى الأمر تماما:

يا إلهي.. لقد تأخرت.. سيقتلني المدير حتما..

ولكن...

لا يوجد ولكن.... أقول لك سيهدر دمي اليوم.. سلام.

ثم قفز من مقعده مبتعدا، بينما عينا صديقه تتابعانه في إحباط.. آه لو كان مثله...

obeikan.com

(3)

العيد

ظهر القمر من بعيد، متسلقا حافة السماء.. شروق القمر الرهيب.. قرص أحمر دموي يصعد من قلب الظلام، قريب جدا حتى تشعر أنك قادر على إمساكه بيديك. الشوارع حول بيته خاوية؛ لا أحد هناك سوى قط شارد يحفر الأرض باحثا عن شيء ما في العشب الأصفر الناحل.

الصمت، الصمت؛ كل شيء صامت وميت.. غريب أن اليوم عيد. ولكن ربما ليس غريبا، فلقد صارت أيام الإجازة عنده مرتبطة ببعضها؛ حلة واحدة من البرودة والوحدة والصمت. كلهم يجتمعون في وسط المدينة، حيث الصخب والزحام والبهجة المجوفة.. انسحبت طاقة الحياة من أطراف المدينة، وتجمعت هناك. ربما لهذا يشعر بالبرودة، برودة الوحدة، عدم وجود آخرين تدفئ أنفاسهم المكان. ولمَ يجلس في الشرفة على الرغم من عدم وجود أحد يشاركه جلسته أو أي شيء ليشاهده، سوى العتمة التي تغطي الكون بكآبتها؟ في الداخل، كانت والدته تخيط شيئًا ما، ووالده يقرأ الجريدة، ومن آن لآخر يتبادلان الرد على مكالمات من أقارب لم يعد يذكرهم أحد..

كم صار يكره أيام الإجازات.. إنها لا تعني شيئًا أكثر من كونه لن يستطيع الذهاب إلى المحكمة.. أنّه سيبقى في غرفته يحدق في السقف، أو هنا في الشرفة يحدق في الشارع الخاوي.. بدأ الملل يتسرب إليه، مع ذلك الشعور القاسي بأن لا فائدة ولا معنى لوجوده. حتى بعدما تنتهي

الإجازة، ويعود إلى العمل؛ ينساق في نفس الدائرة.. سيعيش ويموت بلا هدف على الإطلاق.

ولكن لمَ كل هذا؟.. آه.. لكم يكره أن يفكر هكذا.. نعم، لا يجب أن يفكر هكذا.. قرر أن ينزل، يذهب إلى أي مكان، بعيدا عن نفسه. صحيح أن مقهاه المفضل يغلق أبوابه في الأعياد، لكن لابد وأنه سيجد مكانا آخر ليقضي فيه بعض الوقت..

***

احتضنه الشارع الخاوي. ترك خطواته تسيره وحدها وتذهب به إلى أي مكان. من أين؟.. إلى أين؟.. كيف ولماذا؟.. لا يهم.. إنّه لا يريد سوى الهروب من الوقوف أمام نفسه في مرآة جلسته الوحيدة..

الشوارع متشابهة، متشابكة.. غاص في واحد وخرج من آخر، وفجأة وجد نفسه هناك؛ أمام المحكمة. كانت قدماه الخبيثتان تقودانه إلى هناك إذن، دون أن يدري، وفجأة وجد نفسه في مواجهة المبنى الهائل الجبار. لأول مرة يراه في المساء.. غريب مظهره في الليل، يبدو متربا، غارقا في العرق والشمس تلفح جبينه. أما في ضوء القمر، فيبدو غامضا ومخيفا.. المساحات المظلمة، في مركن السيارات وأسفل الدرج المترفع، تعطي شعورا بالتفرد والوحشة.

لاحظ أنَّ هناك زوجًا من النوافذ المضاءة.. أيوجد أحد هناك بالفعل الآن؟ اقترب أكثر، فلاحظ وجود أحد العساكر أمام مدخل السيارات. من الطبيعي أن يتواجد هؤلاء في كل وقت.. مساكين أولئك؛ إنهم لا

يحصلون على إجازة أبدا، ولكن من يحصلون على إجازة أيضا مساكين، عندما لا يجدون ما يفعلونه فيها. تنتهي الإجازة عندما ينتهي شعورك بها، تتحول إلى فراغ هائل يبتلعك ويضيعك.

تمنّى لو يقف هناك مدة أطول، يلقي السلام على الحارس، ويتجاذب معه أطراف الحديث حول أي شيء؛ المهم أن يتحايل للبقاء هنا لبعض الوقت.

قبل أن يقترب، لمح دراجة بخارية مختبئة في المساحة المظلمة خلف الدرج المزدوج.. إذًا فالأضواء المتناثرة في داخل المبنى ليست أضواء وهمية. ربما كان هناك أحد بالفعل، ولكن ربما أيضا هي دراجة هذا الحارس المسكين.

لا يعرف لِمَ شعر برغبة في الاقتراب منها ولمسها، كأنّه طفل صغير يريد الركوب على هذه اللعبة الكبيرة المجسمة. اندمج ظلّه في ظل الدرج الكبير وهو يتجه إلى الدراجة، وصدمته الرائحة الكريهة المتطفلة على نسمات الهواء.. مدّ يده يلمس المسند الخلفي.. إنه بارد كالثلج. وفي تلك اللحظة، شعر بشيء بارد يخزه في ظهره، وصوت أكثر برودة يقول:

لا تتحرك.

***

للحظة لم يستوعب الأمر. كانت حواسّه مخدرة بفعل البرودة. هل ظنَّ الرجل أنه يريد أن يسرق دراجته؟.. إن موقفه غير مبرر فعلًا، لكنه حاول أن يجد عذرًا أمام الرجل:

آسف يا سيد.. لقد كنت....

أخرج ما معك!

!!!!!!..

هذه المرة لم يستطع أن ينطق إطلاقا.. ماذا قال الرجل؟!

قلت أخرج ما معك..

كررها الرجل في خشونة، وكان عليه أن يفهم بسرعة. ولكن كيف؟ وفي هذا المكان بالذات.. إن هناك شرطيًّا على بعد أمتار قليلة منه.. أيصرخ؟.. لكن المطواة ستكون أسرع بالتأكيد.. وعاد الرجل يكرر في نفاد صبر:

أخرج ما معك بالتي هي أحسن وإلا....

وغرس المطواة أكثر في ظهره.. كان التهديد واضحا..

دس يده ببطء في جيب سرواله، أخرج كومًا من الأوراق المالية المتناثرة، ودسها في الكف الممدودة.. شعر بملمسها خشنًا وباردًا.

أهذا كل ما معك؟

نعم..

والساعة؟

برغم الظلام، فرد معصميه دون أن يتكلم.. لو يستطيع أن يرى وجه هذا الرجل!.. شعر بالمطواة تبتعد قليلا عن ظهره.. وعندما التفت، لم يكن الرجل هناك.. لكنه لم يبتعد كثيرًا بالتأكيد.. لا بدّ وأنه يختبئ قريبا في إحدى الزوايا المظلمة. إنه غبي، لقد نسي وجود الشرطي القريب.

وأسرع حسن إليه على الفور، ألقى أمامه كل ما حدث.. رفع إليه الشرطي عينين منطفئتين قائلًا:

هل معك سيجارة؟

دسَّ يده بسرعة في جيب سترته وأخرج علبه السجائر؛ فسحب الرجل منها واحدة.. وعاد هو يبحث في الجيب الآخر عن القداحة ليشعلها له. أخذ الشرطي منها نفسًا عميقا قبل أن يتحدث أخيرًا:

تقول أنك رأيت لصًّا.. هل أنت متأكد؟

طبعا!!.. لقد سرقني!

هنا!

هنا!

غريبة!

قال هو في حماس موشكًا على جذب الرجل من قميصه:

تعال معي فقط.. بالتأكيد لم يبتعد كثيرا..

لم يتحرك الشرطي من مكانه، وأخذ نفسًا آخر من السيجارة قبل أن يقول:

وما الذي كنت تفعله أنت هنا؟

تراجع أمام السؤال مرددًا:

أنا.. لقد كنت أتمشى قليلًا.

تتمشى!!، هنا!

هذه المرة تراجع أكثر، وشعر بعرق بارد يغمره، ثم قال متلعثما وهو يشيح بيده:

لا عليك.. لابد وأنه قد هرب.

وسرعان ما ابتعد مهرولا كأنه هو اللص الهارب، وصوت الشرطي يطارده مطالبا إياه بالانتظار.. لكنه لم يتوقف أبدا..

obeikan.com

(4)

المدرسة

هذا غير محتمل إطلاقا يا أستاذ حسن.

تجمد في مكانه لدى سماعه للعبارة. كان يتوقعها تماما، وهذا بالذات ما أفزعه، إذ ظلَّ متحفزا منتظرا سماعها. كان كاللص الذي يعرف أنه المقصود، بمجرد أن يرى بادرة شكّ في أعين الآخرين..

آه، من هذا الرجل، المدير، إنه لا يهدأ أبدا. إنه شخص أسطوري يتواجد دائما في كل وقت، وفي كل مكان، وحبذا لو كانا غير مناسبين إطلاقا مثل الآن.

التفت حسن إليه بابتسامة صفراء باهتة، وقبل أن يفتح فمه بكلمة:

يـ....

هذه هي المرة العاشرة التي تأتي فيها متأخرا، حتى بعد الإجازة.. لو ظللت على هذه الطريقة، فلن تحصل على راتب إطلاقا هذا الشهر.

قالها الرجل ووجهه البني يلمع بقطرات العرق، وقد ازداد لونه قتامة مع زحف لون البذلة الغامق عليه:

فقط لو تعرف ظروفي يا أستاذ سليمان..

ظروف.. أية ظروف؟.. ليس لديك أعذار إطلاقًا.

اقترب حسن منه، ووضع كفه على كتفه في محاولة للتأثير عليه، ورسم على وجهه أعتى علامات البؤس الممكنة، ثم قال:

اسمعني فقط.. قابلني غدا قبل ميعاد المدرسة بساعتين، وسأجعلك تعرف كل شيء بنفسك.

تراجع الأستاذ سليمان بسرعة أمام هذه المبادرة الغريبة. يبدو أن حسن لديه مشكلة حقيقية.. مقابلة قبل المدرسة!.. لقد ورط نفسه.. أسرع يقول:

والله لم أكن أعرف يا أستاذ حسن.

ما هذا الذي لم يكن يعرفه.. لا يعرف، لكنه يعرف جيدا أن هذا سيخلصه من مقابلة غد اللعينة، لكن حسن رأى أنه اكتسب أرضا كبيرة، وقرر عدم التفريط فيها:

مستحيل يا أستاذ سليمان.. لابد وأن ترى بنفسك؛ عندها ستعذرني.

آه هذا الحسن.. إنه مصيبة.. إنه كارثة.. لقد التصق به كالكلب الأجرب مصرًا على أن يرى بنفسه..

أسرع سليمان يدافع بسرعة:

يا أستاذ حسن، لا داعي لكل هذا.. أنا أفهم هذه الأمور جيدا وأقدر ظروفك، صدقني.

وعندما أحسّ حسن بأنه يحاول التملص، قرّر الاستماتة:

يا أستاذ سليمان، لا يمكن أن أقبل منك أي أعذار. لابد وأن ترى بنفسك أنني لا أعطل الحصص من أجل شيء تافه.

بدأت قوى الأستاذ سليمان تخور وقال في وهن:

ولكن....

غدا في التاسعة أمام المدرسة.. لو لم تأت فـ...

ثم بتر عبارته فجأة فاردا كفه بحركة تم،ثيلية قبل أن يبتعد تاركا الأستاذ سليمان موشكا على البكاء..

آه، إنه يكلمه كل يو،م فما الذي حدث في هذا اليوم بالذات.. آه، إنه يوم الثلاثاء.. لابد وأنها لعنة يوم الثلاثاء.. كم يكره هذا اليوم من بين أيام الأسبوع..

بينما كان حسن يصعد الدرج إلى الفصل، كان يفكر.. تبًّا! ما الذي قاله؟ وما الذي فعله؟.. هل طلب من المدير أن يقابله غدا ليريه سبب تأخره عن المدرسة؟.. وسبب تأخره على المدرسة هو.... المحكمة.. وهذا يعني أنه سيأخذ المدير غدا إلى المحكمة.. يا إلهي!، لقد جن بالتأكيد!

***

وصله صوت الضوضاء الرهيبة القادم من الفصل، قبل أن يصل إلى الفصل نفسه. سيمفونية فوضوية رهيبة من امتزاج أصوات التلاميذ. في اللحظة التي دلف فيها إلى الداخل، كان أحدهم يطل من النافذة، بينما آخر يستعد لدفعه من النافذة، لكنه- ولحسن الحظ- تراجع،

بعدما رأى الأستاذ حسن، واستقر في مقعده بابتسامة ملائكية خجلة!!!

انفض المهرجان بسرعة، ونزل القرود المعلقون على الدكك إلى مقاعدهم، وانسحبت الأصوات تدريجيا تاركة صمتا وحيدا مدهشًا. لا يعرف لمَ تذكر المرأة القردة ما إن رآهم. إنهم كالقرود فعلا، لا ينقصهم سوى حفنة من الفول السوداني مثلها!

قبل أن يجلس في مقعده، وجد إصبعا مرتعشا صغيرا يرتفع.. قال في ملل:

نعم..

آ...

هل تريد الذهاب إلى الحمام؟ حسنًا.. اذهب..

أبدًا يا أستاذ ولكن.....

ولكن ماذا؟

آ....

هل أنام قليلا حتى تتذكر؟

ضجّ الفصل كله بضحكة واحدة غريبة، سرعان ما انطفأت. احمر وجه الصغير في خجل ممتزج بغيظ، قبل أن يحسم أمره ويقول:

حمد يا أستاذ كان يقول إنك تأخرت عن الحصة لأنك.... لأنك مت.

opeikan.com

مت!

رددها هو في دهشة.. غريب تفكير هؤلاء الصبيان..

نهض أحمد بسرعة مدافعا عن نفسه:

علي، علي هو من قال لي يا أستاذ.

وانتقلت التهمة إلى علي، الذي وجد نفسه متورطا فجأة، بعدما كان في المنطقة الدافئة، وكان مستعدا للبكاء على الفور:

والله هو يا أستاذ..

حدق في وجوههم الطفلة المذنبة قبل أن يقول:

أنتم بحاجة إلى محكمة.

وفي تلك اللحظة، دق الجرس، فأسرع حسن يغادر الفصل تاركا وراءه الثلاثة على وشك ضرب بعضهم البعض..

obeikan.com

(5)

اللقاء

الشمس قريبة وبعيدة. يشعر بها تكاد تذيب رأسه، لكن تلك الرعشة الباردة، من أين تأتي وكيف تتسلل عبر مسام جلده.

أسيأتي حقًّا؟ ربما لن يأتي.. سيأتي، لن يأتي، سيأتي، لن...ولكنه قد أتى بالفعل. لمح شبحه المتكور ينزلق قادمًا من نهاية الشارع. ضيق عينيه ليركز النظر أكثر.. نعم إنه هو، بالتأكيد هو، يا لكارثة أنه هو.. قضي الأمر..

أخذ ينقل قدميه في عصبية، وعندما أصبح أمامه مباشرة مدّ يده، وضغط على كفّه وهو يقول:

وعليكم السلام يا أستاذ سليمان.. لقد اعتقدت أنك لن تأتي.

والله لقد فكرت فعلا في ذلك، لكنني عدت فقلت إنني وعدتك.

لم يكن هناك داع لأن تتعب نفسك إطلاقا.. أنا أيضا عدت فقلت يا لسماجاتي.. كيف أثقلت على الأستاذ سليمان هكذا؟.. لم يكن من الواجب أن أطلب منه المجيء بنفسه.

حكَّ سليمان رأسه وفكر؛ ربما من الأفضل لو لم يكن قد أتى.. أليس هذا ما يقوله الرجل بنفسه؟ ولكنه ابتلع أفكاره بسرعة وقال:

ولا يهمك يا عم.. تعبك راحة، والآن ما الذي كنت تريد أن تريني إياه؟

ارتبك حسن أكثر؛ لقد جاءت اللحظة الحاسمة. بدأ الأمر بحماقة لا نهائية، والآن عليه أن يكمله.

ابتلع ريقه الجاف بصعوبة.. وخرجت الكلمات خشنة من حلقه، هو يجذب سليمان من ذراعه قائلًا:

- حسنا يا أستاذ سليمان تعال معي..

***

كان باب المحكمة مفتوحًا على مصراعيه، وكأنه في انتظارهما.. في انتظار الجميع.

خلال المسافة القصيرة من المدرسة إلى المحكمة، حاول الأستاذ سليمان أن يستخلص منه أي شيء، لكن حسن كان جامدا كصخرة، يردد بلا انقطاع:

لا تتعجل.. ستفهم عندما نصل..

ولكن أعطني فكرة فقط..

قلت ستفهم عندما نصل.. لا تتعجل.

صعدا إلى الطابق الثالث، ووقفا وسط الزحام أمام إحدى القاعات.. انتظر الأستاذ سليمان قليلا ريثما يلتقط أنفاسه، قبل أن يعاود السؤال ملحا من جديد:

والآن أخبرني، ما الذي تنوي أن تريني إياه هنا.

تصنع حسن الصرامة، ورسم على وجهه علامات الجدية وهو ينظر في عيني سليمان بقوة قائلًا:

اسمعني يا أستاذ سليمان، أرجوك.. أنا لا أريد أن أخبرك بشيء.. أريد أن ترى بنفسك كي تحكم بنفسك وتعذرني.

لكن الأستاذ سليمان لم يكن ينظر إليه، بل كان ينظر إلى نقطة ما خلفه، قبل أن يشير إليها قائلا:

- هل تعرف تلك المرأة؟

التفت هو على إثر السؤال، ولمح شبحًا للمرأة القردة يختفي بعيدا وسط الزحام، وصوت سليمان يصل إليه من خلفه:

لا أعرف، خيل إلي أنها تنظر إليك بشدة.

obeikan.com

(6)

السبب الحقيقي

بقايا أشعة الشمس الباهتة والغبار الذي غطى المقاعد. الأصوات الخافتة التي يتردد صداها في القاعة شبه الخاوية، كل هذا أشعره بكآبة لا حدود لها.

جذب سليمان خلفه، وجلسا في مكان متقدم؛ في المقعد الثاني من الصف الأيمن، حيث كان قريبا جدا من منصة القاضي.

كان هذا سيسعده في الأحوال العادية.. لكن في مثل هذه القاعة القاتمة الكآبة، ومع التصاق الأستاذ سليمان به كالذبابة، وكونه لا يجد ما يفسر به موقفه، كل هذا جعل السعادة هي آخر ما يمكن أن يشعر به الآن.

زاد شعوره بالوحشة والقلق تفكيره في المرأة القردة.. ما الذي تريده منه هذه المرأة؟.. لماذا تطارده بنظراتها ووجودها الثقيل؟.. لو لم يكن الأستاذ سليمان رآها، لاعتقد أنها شبح لا يراها غيره ولا تطارد هي سواه.

لاحظ النظرات الفضولية يمطره بها الحاضرون. لابد وأن كل طرف يحسب أنه تابعٌ للطرف الآخر. كان هذا يحدث كثيرا مع صديق له يمارس الصعلكة على الطريقة الأشعبية، ويحب تناول الطعام في حفلات الزفاف في الفنادق الكبرى. كان يعتمد على هذه اللعبة؛ لو عرف أن من يحدثه من أهل العروس، إذا فهو من أهل العريس،

والعكس. هذا طبعا قبل أن يتم كشفه في المرة الأخيرة، ويحظى بعلقة لن ينساها باقي عمره.. يتمنى ألا يصل الأمر معهما إلى هذا الحد.

مال عليه الأستاذ سليمان محاولًا من جديد أن يستفسر، لكنه تجاهله:

قلت لك ستفهم كل شيء وحدك.

لكن الرجل واصل أزيزه المثير للأعصاب، لم ينقذه منه سوى بدء المحاكمة..

صه!

فسكت الأستاذ سليمان أخيرا مضطرا، وإن لم يمنعه هذا من محاولة الكلام بين حين وآخر؛ لتزجره نظرة من القاضي.

نهضت امرأة شرسة، كان واضحا أنها محامية عن الرجل الذي يجلس بجوارها. فكر في أن هذه المرأة لا تصلح بالفعل سوى لهذه المهنة. هذه امرأة خلقت للمشاحنات والقضايا والمشاكل، لو لم تجدها في هذه المهنة لمارستها في أي مكان آخر؛ على زوجها، على أبنائها، أو حتى على والدها ووالدتها. كانت متأنقة بصورة مبالغ فيها؛ وجه ملطخ بالأصباغ، ودقّ كعب حذائها ذي العشرة سنتيمترات على الأرض وهي تتقدم تجاه المنصة لتُري القاضي ورقة التوكيل.

كان واضحا أنَّ الزوج قد أتى بها خصيصا ليغيظ زوجته، لكن هذا لا يمنع من كونها كفؤًا حقا، ألم يقل إنها خلقت للمشاكل؟.. أما الزوجة، فقد أحضرت محاميا رجلا، ليس لتغيظ زوجها بالطبع، فهي تغيظه فعلا بكونها ترفع عليه قضية خلع، ولكنه يعتقد أن هذا يعود إلى

ظاهرة غريبة وهي أن النساء لا يثقن أبدا بامرأة أخرى. الكثير من النساء يفضلن الطبيب الرجل لأنهن يرونه أكثر كفاءة؛ وهكذا في معظم الأمور وهو ما يراه هو غريبا. قد يكون من المقبول أن يشكك الرجل في قدرات امرأة، أما أن تشكك المرأة في قدرات نفسها فهذا هو المدهش.. لابد وأن النساء كائنات غريبة حقا.. ألا تكفي المرأة القردة مثالا عليهن.. وعند هذه النقطة وجد نفسه يبتسم:

علام تبتسم؟

عندها فقط تذكر أن الأستاذ سليمان لا يزال هنا، ملتحمًا به كوطواط، وأنه يريد أن يعرف ما علاقة تأخره عن المدرسة بالمحكمة:

لا شيء..

قالها ليتخلص منه، وعاد يتابع العرض الممل؛ فوجد أن الأمور قد بدأت تصبح مسلية؛ فإن المحامية الشرسة تحمست وكادت تفتك بمحامي الزوجة، الذي رأى أن الأمر قد ينتهي بكارثة، فأسرع يطلب التأجيل.. ثانية! هذا غير محتمل، منذ متى وكل شيء مؤجل هكذا؟..

كان المحامي يعرف أنه سيكسب القضية، لا يوجد أحد يخسر قضية خلع.. ولكن يبدو أن تلك المرأة جعلته يشعر أنه يمكن أن يخسر ما هو أسوأ بكثير..

وافق القاضي على الفور لفض هذا الاشتباك، الذي بدا وكأنه سيتحول إلى تشابك دام بالأيدي قريبا.. المحامية تهز ساقها في عصبية، فيشعر بأن مقعده هو الآخر يرتج، وأخيرا جاء الإفراج. تحركت الخطوات البطيئة المتثاقلة خارجة من القاعة، وقد لاحظ أن المحامي

اختبأ خلف موكلته من نظرات المحامية الشرسة، وهو يؤكد لها أن كل شيء تحت السيطرة..

أحس فجأة بأن الأستاذ سليمان قد توقف عن الكلام تماما؛ فالتفت يبحث عنه، كأنه يتوقع أن يكون قد سقط منه في الطريق. لكنه وجده يسير بجواره صامتا، وهو ينظر إلى الأرض. غريب هذا.. ما به؟.. هل كان العرض مؤثرا إلى هذا الحد؟ أمام القاعة، توقف الأستاذ سليمان فجأة! ووضع يده على كتفه، في أي فيلم رأى هذا المشهد من قبل؟.. لا بدّ وأنه سيقول له شدّ حيلك يا عتريس أو أي شيء من هذا القبيل، لكنه قال:

الآن فهمت كل شيء.. زوجتك أنت الآخر تريد أن تخلعك؛ كانت هي إذًا تلك التي كانت تحدق فيك خارج القاعة. لهذا السبب أهملت نفسك وأصبحت تجيء إلى المدرسة متأخرا.. لم تجرؤ على أن تخبرني، فأحضرتني إلى هنا.. يا لك من إنسان حساس.. لم يكن يجب أن تتعب نفسك وتتعبني معك إلى هذا الحد...

وكما توقع أضاف:

شد حيلك يا بني.

ثم شدّ على يده..

وقف حسن يراقبه وهو يبتعد، دون أن يجسر على إيقافه ليخبره فقط أنه ليس متزوجًا من الأصل!

(7)

أصحاب العقول!

على الرغم من برودة الجو، كان يشعر أنَّ وجهه يلتهب حرارة. كان يشعر بمزيج من الخجل والسعادة؛ مزيج غريب متضارب، كل عنصر فيه يجذبه إلى ناحيته مرة. الخجل لأنّ الأستاذ سليمان اعتقد أنه متزوج وهو ليس كذلك؛ والأسوأ ممن؟.. من المرأة القردة.. والأكثر سوءا أنها ستخلعه!!!.. أما السعادة، فلأنه وجد مخرجًا من الورطة التي أسقط نفسه فيها، عندما أحضر الأستاذ سليمان معه إلى المحكمة دون أن يكون لديه فكرة محددة عما سيفعله أو ما سيبرر به تصرفه!!!

أفاق على صوت احتكاك عجلات سيارة بالأرض، وقد توقفت على بعد سنتيمترات منه.

أطل السائق من نافذة السيارة، وأطلق سبابا على غرار: المصائب التي تقذف علينا على الصبح.. ازداد احمرار وجهه، ولم ينظر جهة السائق مطلقا، كأنه ليس هو المقصود! لم يكن يعرف إلى أين يتجه بالضبط.. كانت قدماه تقودانه دون أي وعي منه إلى حيث تريد وقد أسلم قياده إليها!

وجد أنه قريب من المدرسة، فاتجه إليها، على الرغم من أنه قد تبقت نصف ساعة قبل أن يحين موعد الفترة المسائية. لكن لا بأس، فليس لديه مكان آخر يذهب إليه سوى المنزل، وهو بعيد كثيرا عن وسط

المدينة، كما أنه ليس هناك ما ينتظره في البيت سوى الهدوء الممل الرتيب. ترك قدميه تقودانه مرة أخرى في اتجاه المدرسة، بينما عقله يحلق بعيدا متذكرا المرأة القردة. ومن جديد، نقر السؤال رأسه: ماذا تريد منه هذه المرأة؟.. هل تعرفه؟.. لمَ تهبط فجأة على رأسه في كل مكان بمظلة خفية؟!

تذكر أيضًا المحامية الشرسة النمرة؛ نعم بالفعل إنها أقرب إلى نمرة متوحشة؛ لمَ يبدو البشر أحيانا أشبه شيء بالحيوانات؟.. فكر أيضا أنه ربما كل إنسان له شبيه في مملكة الحيوانات.. فمثلا الأستاذ سليمان يبدو كفيل صغير وديع، وقد يسحق أحيانا أي شخص إذا ما جلس عليه، دون قصد طبعا!!

حارس المدرسة يبدو كالكلب الأمين، يبصبص بذيله ما إن يرى المدير؛ لكن ينبح عليه هو دائما ولا يعرف لماذا؟.. ربما لأنه يبدو غريبا في كل مكان يذهب إليه.

وهو؛ هو نفسه.. ما الحيوان الذي يمكن أن يشبهه؟ فأر، أرنب أم حمار؟.. نعم، حمار بالفعل؛ هذا هو الأنسب له، على الأقل بالوراثة!!.. لقد أعتاد والده أن يصف نفسه بحمار السخرة عندما تتكاثر عليه مطالب المنزل، كان هذا قديما، قبل أن يرحل إخوته إلى بلاد الخليج الغنية السوداء، التي لا يعود منها إلا مجنون أو أحمق. حمار!.. حمار طفل جميل رضيع، كحمار الحكيم.. لكن أذنيه ليستا طويلتين إلى هذا الحد، كما أنه لا يملك عيني الحمار الوديعتين الواسعتين الحزينتين..

أحس برغبة في أن ينظر في مرآة حالًا.. توقف أمام سيارة مركونة قريبا من المدرسة.. انحنى أمام الزجاج، الذي عكس صورته باهتة مشوهة. أمسك أذنيه بيديه يحاول أن يمطها إلى أعلى، عندما سمع مصمصة شفتين من خلفه، التفت، فرأى امرأة تنظر إليه بما معناه أصحاب العقول في راحة!.

حكّ مؤخرة رأسه بيده في حرج.. معها حق؛ إنه يتصرف بطريقة غريبة هذه الأيام. يشعر أنه ليس متزنًا تماما، وأنه ليس على ما يرام. ربما عليه زيارة طبيب نفسي. صحيح أنه لم يقابل شخصا ذهب إلى طبيب نفسي وشفي حقا؛ دعك من كون الأطباء النفسيين في الأفلام لا يزورهم سوى النساء، لكي يقعن في حب الطبيب في نهاية الفيلم. في هذه الحالة، سيكون عليه أن يزور طبيبة إذن!

ما هذا الذي يفكر به؟.. لقد صارت أفكاره حمقاء جدا في الفترة الأخيرة!.. أي طبيب نفسي وأية طبيبة سيقع في حبها في نهاية الفيلم؟ يقصد بالطبع في نهاية الجلسات.. لابدَّ وأنه قد جنَّ بالتأكيد!

في مدينة صغيرة كهذه، تعتبر زيارتك لطبيب نفسي شهادة مختومة بالجنون. ولكن يبدو أنه جن فعلًا بجنون الشكّ، ربما لأنَّه يحسّ أن هناك من يراقبه في هذه اللحظة. التفت خلفه بسرعة، فخيل إليه أن هناك شبحًا يختفي في نهاية الشارع.. كاد يسارع للحاق به، ولكن يجب عليه ألا يستسلم لهذا الهراء؛ فمن هو كي يهتم أحد بمراقبته من الأصل!!

***

رأسه تسقط على صدره دون أن يشعر. أكثر من مرة تتجمد عيناه قبل أن تغيب عنهما الرؤية تماما، ثم يستيقظ فجأة متلفتًا حوله كي يتأكد من أن أحدًا لم يره.

لسبب ما، اعتقد الأستاذ سليمان أن اليوم مناسب جدا للاجتماعات والحديث عن معايير الجودة الخلاقة، التي هي الأساس لإعادة هيكلة المنظومة التعليمية، والبنية الأساسية لـ... لماذا؟.. ما كل هذا الكلام الفارغ؟.. لمَ لا يتكلم هذا الرجل مثل باقي خلق الله؟ لكنها كما يقول تعليمات الوزارة، وسيكون عليهم أيضا أن يتدربوا على مثل هذا الكلام عمليا.. كيف؟ الله وحده أعلم..

تحدث بعض المتحمسين عن الكفاءة الإنتاجية، أو عن شيء من هذا القبيل؛ فهو لا يرى أية علاقة بين الكفاءة الإنتاجية والتعليم سوى المعهد الذي يحمل ذات الاسم.. لا بدّ وأنه أخطأ في سماع الكلمة.. وردد كل واحد منهم كلمة أو أخرى يحاول التعبير بها عن كونه متابعا للأمر.. تقريبا هو الوحيد الذي لم يتكلم، ولكن له عذره؛ أليس متزوجًا من المرأة القردة، وتريد أن تخلعه؟.. ذكر هذا، فعاوده الشعور بالخجل من جديد.. تلوّن وجهه لثانية، لم يلحظ أحد خلالها شيئًا لحسن الحظ..

سمع الأستاذ سليمان يتحدث عن جمع تبرعات لإصلاح بعض النوافذ المحطمة. هنا استيقظ النائمون من أمثاله، وصرخ أكثرهم حماسة:

هل سنصرف على المدرسة من جيوبنا يا أستاذ؟

عندما يتعلق الأمر بالنقود، تستطيع أن تشاهد الوجه الآخر للبشر.

تجاهل سليمان عبارات الاحتجاج، وعاد يتحدث عن شراء سجادة لمكتب المدير؛ يقصد نفسه بالطبع، وعادت صيحات الاحتجاج تدوي من جديد.. بينما لمح هو من خلف عينيه نصف المغمضتين مدام ناهد، أو لعلها مدام علا أو ربما إلهام، كلهن يشبهن بعضهن، ولا تستطيع تمييزهن أبدا. كانت تميل على زميلتها هامسة بشيء ما حول ياقة الأستاذ سليمان الفضفاضة المتسخة قليلا و... وما دوره هو في كل هذا؟..

تمدّد أكثر في مقعده، ومطّ ساقيه أسفل الطاولة.. الرحمة يا خلق الله.. ألا يصمتون قليلا؟!.. إنه يريد أن ينام، ينـام، ينـــام.. ومن جديد، سقطت رأسه على صدره، ونام هذه المرة بالفعل!!!

obeikan.com

(8)

المجنون

الشوارع الندية الخاوية، خطواته الرخامية الباردة، السماء بألوانها التي تتفتح رويدا رويدا.. الكلاب تبصبص بأذيالها، ولا يعرف إن كانت تنوي التحرش به أم لا.. في ذلك الوقت المبكر من النهار تغدو المدينة مدينة الكلاب.. لا أحد سواها يذرع الشارع، تسير في جماعات.. لا أحد يعرف إلى أين، ولا حتى هي!.. لكن في أحيان كثيرة، تبدو المدينة -حتى في وسط النهار- مدينة للكلاب! فكر في هذا وهو يراقب هذا التجمع الكلابي الممتد.. ويركل حجرا بقدمه بعيدا. لقد كانت الكلاب طيبة سليمة النية لحسن الحظ، ولم يفكر أحدها في تهديده على سبيل استعراض القوة.

عاد يراقب سماء المدينة الخاوية، بعض العصافير الرمادية تقف على أسلاك الكهرباء، تبدو كئيبة وكسولة، وهي تحكّ ريشها بمنقارها الصغير. العالم كلّه ناعس، عدا الطبيعة التي تهز رأسها بوهن، وتستيقظ على وقع خطواته الهادئة. هو وحده لم ينم طوال الليل؛ ذلك الوضع اللعين المتأرجح بين الموت والحياة؛ لا هو نائم ولا هو مستيقظ. يشعر أنه معلق من ساقيه إلى صاري قارب صغير، في وسط أمواج صاخبة. لمَ لم ينم؟ لا يعرف.. على الرغم من كونه، في هذا اليوم بالذات لم يشرب قهوته. ولكن يبدو أن فنجان القهوة الذي تركه هو ما كان يساعده على النوم الهادئ؛ ذلك الهدوء الثلجي الذي يغشى أجساد الموتى؛ نوم بلا أحلام، ولا حتى كوابيس.

لم يكن هناك شيءٌ محددٌ يشغله كي يجعله قلقا إلى هذا الحد. فقط كانت هناك حالة غريبة من تداعي الذكريات؛ بهجة الطفولة، كآبة المراهقة، أما أيام الشباب هذه فلا ذكريات عنها مطلقا، فكل أيامها مترهلة، ممتزجة، مختلطة في كتلة واحدة من العجين، لا ذيل لها ولا رأس، كلها تشبه بعضها. لا يوجد يوم به شيء مميز أو ذكرى غامضة بعيدة عن جنون يتحدى رتابة الأيام الأخرى. ومن الغريب أنهم يعتقدون أن الشباب سعداء.

راقب الطائرَ الأبيض ذا الريش المتسخ وهو يقف على شجرة قريبة من مجرى النهر. كان دائما يتخيله يبتسم ابتسامة خفية غامضة، وتبدو أحيانا بها لمسة سخرية غريبة، لكنه عندما رآه الآن لم يبْدُ كذلك.. بدا بائسًا كمتسول فقير وهو يبحث بعينيه بين فضلات الطعام عن شيء يأكله، ويهبط حاطا فجأة على الأرض، حيث يلتقط ما لا يراه سواه.

كل شيء يبدو ضبابيا مشوشا، وكأنه يراه في حلم. صداع خفيف باهت يتسلل إلى رأسه، يؤكد بداخله أكثر الإحساس بأن ما يراه ليس حقيقيا، وأنّه يحلم بما لم يحدث أبدا. فجأة شعر بيد توضع على كتفه:

صباح الخير.

الوجه نفسه بدا جزء من ذلك الحلم المتأرجح الحقيقي! أين رأى هذا الوجه من قبل؟.. ببطء، تستعيد التفرعات الشجيرية في عقله الوجه والاسم، نعم، إنه....

إلى أين أنت ذاهب الآن؟.. هل نجحت في تكوين مجموعة خصوصية أخيرا؟

قالها زميله في المدرسة وغمز بعينه:

آه، لا، كنت فقط.. قلقًا.. لم أستطع النوم، فخرجت لأتمشى قليلا؛ وأنت؟

أنا لدي مجموعة الآن.

في هذا الوقت المبكر!

نعم، فالمدرسة تبدأ في السابعة والنصف كما تعلم.

كدت أنسى هذا من كثرة العمل في الفترة المسائية.

لِمَ لا تجيء معي؟

إلى أين؟

نفطر ونشرب كوبين من الشاي، ونتحدث قليلا.

على الرغم من كونه شعر أن الدعوة ليست حقيقية، لكنه وجد نفسه يسير معه. توقفا أمام عربة صغيرة، ابتاعا منها بعض الشطائر، وجلسا على دكة خشبية بجوارها يأكلان.

قال الزميل، وهو يلوك الطعام في فمه:

سمعت أن المدير، الأستاذ سليمان، لديه مشكلة.

مشكلة!!.. مشكلة من أي نوع؟

لا أعرف.. يقولون أنه يذهب إلى المحكمة كثيرا هذه الأيام.

يذهب إلى المحكمة كثيرا!.. لماذا؟.. هل لديه قضية؟

بالتأكيد.. لِمَ سيذهب إذن؟

ربما....

ربما، ماذا؟

لا شيء؛ لكن ماذا تعرف عن هذه القضية؟

إنها قضية نفقة لابنته..

هل طلقت؟

آخر معلوماتي أنها كانت متزوجة؛ لكن من يدري.. هذه الأشياء تحدث بسرعة هذه الأيام، حتى أنّنا لا نشعر بها.. أستأذنك الآن..

وانسحب الزميل مبتعدا، أما حسن فإنه بدأ يشعر برأسه تثقل بفعل الطعام وقلة النوم. فكر في أن يعود إلى البيت، لكنه دون أن يدري وجد قدميه تعرجان على المحكمة!!

***

صعد درجات السلّم الرخامية المغبرة. كان يشعر بشيء ثقيل غريب يجثم على صدره،..يشعر بأنه ليس على ما يرام، بالكاد يلتقط أنفاسه،

ودقات قلبه متسارعة، كما أنه يحس بدوار خفيف. ربما هو مريض.. نعم، لابد وأنه مريض بالقلب، وسيموت بعد أشهر قليلة. توقف في منتصف السلم واستند على الحائط شاعرا بالرثاء لنفسه، ثم تذكر شيئا هاما، أنه لا يكون مريضا أبدا حين يعتقد أنّه مريض. لا بدَّ أن يأتي المرض بصورة مفاجئة في الوقت الذي يعتقد فيه أنه آمن تماما كي يضحك في سخرية منه قائلا:- ما رأيك في المفاجأة؟

ضايقته الفكرة؛ ليس لأنّ المرض سيأتيه فجأة، ولكن لأنه كان يريد التمتع قليلًا بالتفكير في كيف سيتعامل معه الآخرون، عندما يعلمون أنه سيموت.

نفض هذه الأفكار الغريبة عن رأسه، وعاد يواصل الصعود، يصطدم كتفه بالأجساد الصاعدة والنازلة. توقف أمام باب المحكمة يتأمل رجلًا غريب الهيئة يوقف كلّ من يمر، ويسأل عن شيء ما. لكن الأغرب، أن أحدا لم يرد عليه قط!!

إنه مجنون يا أستاذ.. الجميع يعرف هذا..

اندهش من ذلك العامل الفضولي الذي تبرع بإجابة سؤاله. كيف عرف من الأصل أن هذا هو ما يفكر فيه؟ بينما واصل الرجل دون انتظار إجابة منه:

كانت له ابنة شابة، تزوجت من فتى أخرق أحبته. لم يعترض هو، لكنهم اكتشفوا بعد ذلك أنه مدمن سكير به كل العبر التي في الدنيا.. رفعت عليه قضية طلاق ونفقة في المحكمة، ويوم أخذت الحكم

بالطلاق كان هو يوم موتها. هنا أمام باب المحكمة، هجم عليها وصفى دماءَها.. أخذ حكما مخففا، لم يكن في حالة طبيعية. أما الذي أخذ حكم الإعدام بحق هو هذا الرجل.. لم يتحرك من هذا المكان من وقتها، وكلّ من يمر يسأله عن ابنته..

شعر حسن بالغيظ من هذا العامل السخيف. لمَ تطوع بأن يحكي له تلك القصة الكئيبة؟ يكاد يقسم أنها لو كانت قصة بهيجة لما أخبره بها قط!.. أطرق برأسه شاعرا بالكآبة تغزوه، ومر داخلا إلى المحكمة، محاولا أن يتجنب الرجل. لكنه فجأة شعر بالكف الباردة توضع على كتفه:

بعد إذنك، هل يمكنك أن تخبرني إن كنت رأيت ابنتي تمر من هنا؟. إنها جميلة جدا، وعلى ذراعها طفل جميل أيضا.

كان في عينيه مزيج من الرجاء، والحزن، ولمسة من جنون تتمثل في اتساع حدقتيه وحركتهما السريعة الغريبة. شعر بأنه غير قادر على تجاهل تلك النظرة ومواصلة طريقه بلا مبالاة مثل الآخرين، وجد نفسه يقول:

ابنتك.. لقد ذهبت.. لم تعد هنا..

للحظة اختفت النظرة المجنونة من عيني الرجل، بدا فيهما امتنان غريب وهو يقول:

أشكرك.. لم يجب أحد عن سؤالي هذا منذ عشر سنوات..

ثم نظر نظرة غريبة أخرى نحو السماء، قبل أن يخفض بصره ويلقى نظرة متأملة على المكان، ثم يبتعد..

حاول أن يتناسى نظرة الرجل وهو يواصل زحفه إلى الداخل.. يلوي جسده متفاديا الاصطدام بأحد، خصوصا السيدات البدينات اللاتي تستطيع اثنتان منهن فقط سد المدخل الواسع كاملا، عندما سمع صوتا يناديه:

يا أستاذ..

التفت من وسط زحام الأجساد ؛ فاصطدم بجسد امرأة ضخمة، أطارته بعيدا وواصلت طريقها دون اهتمام. بعدما جمع شتات نفسه التي تبعثرت، عاد ينظر مرة أخرى محاولا أن يجد وجه من كان يناديه:

أنا.. يا أستاذ..

تبا! ليته ما التفت.. كان العامل الفضولي اللعين ذاته، الذي حكى له منذ قليل قصة الرجل المجنون البائس.. ما الذي يريده؟

هل معك سيجارة يا أستاذ؟

نظر إليه باشمئزاز:

لا أدخن.

وكاد يواصل طريقه، عندما سمع الرجل ينادي من جديد في إلحاح:

لا تؤاخذني يا أستاذ.. لكن هل معك كبريت؟

احتقن وجهه أكثر من الغيظ.. ما دام لا يدخن، إذن فليس معه كبريت.. يبدو أن هذا الرجل يريد منه أي شيء والسلام. قبل أن يرد عليه في غيظ هذه المرة ليتخلص منه، وجد الرجل يميل عليه متسائلا في فضول:

أنا أرى سيادتك يعني.. كل يوم هنا.. هل لديك قضية أو....

هنا لم يحتمل فصرخ فيه:

وأنت ما لك يا أخي..

ثم تركه وابتعد، وفي غمرة اندفاعه، اصطدم مرة أخرى بجسد فيل صغير متكور، فتراجع للخلف معتذرا، قبل أن يرفع حاجبيه في دهشة:

أستاذ سليمان!!!

تراجع سليمان في ارتباك، ومسح بيده عرقا وهميا وهو يقول بكلمات مبعثرة:

ما هذه الصدف السعيدة يا أستاذ حسن؟!

صدف سعيدة فعلا.. ولكن ما الذي تفعله في المحكمة يا أستاذ؟

ما الذي أفعله؟.. آ.. وما الذي تفعله أنت؟

هز حسن كتفيه في حيرة:

أنا.. أنا أفعل مثل كل يوم.. آ...

ودون أن يعطيه سليمان فرصة ليكمل، قال:

وأنا أفعل مثلك.. مثل كل يوم..

ثم ألقى بنظرة زجاجية سريعة على ساعته:

يا إلهي!.. لقد تأخرت.. أراك غدًا.. أعني اليوم في المدرسة طبعا.. سلام..

راقبه وهو ينزلق مبتعدا.. غريب هذا! ما الذي يفعله الأستاذ سليمان هنا؟.. هل لديه قضية فعلا كما قال زميله في المدرسة، أم يفعل مثله كما قال هو بنفسه؟.. لكن سليمان لا يعرف حقيقة ما يفعله هو هنا.. أيمكن أن يكون عرف أم.... ؟

obeikan.com

(9)

مستشفى المجانين

المدرسة، هل هذه هي المدرسة أم تراه أخطأ؟..

فعلا، لابد وأنه جاء إلى مكان خطأ.. هذه لا يمكن أبدا أن تكون مدرسة، إنها حديقة أطفال، أو حديقة حيوانات، أو حتى حديقة مستشفى المجانين.. لكنها لا يمكن أبدا- ومهما حدث -أن يطلق عليها لقب مدرسة.

أين الأساتذة؟ وأين الأستاذ سليمان بالذات؟، أليس هو مدير هذه الـ...؟!!!.. وكيف...؟.. ولماذا...؟ ومنذ متى..؟.. دارت كل تلك الأسئلة في ذهنه، وظلت معلقة، مبتورة، بلا معنى ولا إجابة..

نادى أحد الطلبة، الذي كان يجرى أمام زميل له، يطارده بعصا في يده:

ولد/ انتظر..

نعم يا أستاذ..

ما الذي حدث هنا اليوم وأين الأساتذة؟

لا أعرف.. يبدو أنها إجازة يا أستاذ..

إجازة!!!، ولماذا جئتم أنتم إذن؟

حك الفتى مؤخرة رأسه في حيرة، قبل أن يقول:

قد تكون إجازة للأساتذة فقط و....

وقبل أن يكمل، كان زميله قد لسعه على كتفه بالعصا، فأسرع يعدو خلفه، وترك حسن واقفا في مكانه ينظر باندهاش إلى هذه الفوضى. تلفت حوله في حيرة متسائلا:

ألا يوجد أحد عاقل يستطيع المرء أن يكلمه؟

فجأة جاءه صوت البواب صارخا من خلفه:

مصيبة، مصيبة يا أستاذ حسن، الحقنا..

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخاطبه فيها البواب على أساس أنه شخص له أهمية، بل والأروع أنه تذكر اسمه.. والأكثر روعة أنّه يطلب منه المساعدة. تجاوز عن فخره بهذا الأمر غير المسبوق، وقال في اهتمام:

ماذا حدث؟

لجنة من الوزارة ستأتي حالا..

تساءل في غباء:

وزارة!.. أية وزارة؟

يا الله، يا أستاذ حسن.. هل هذا وقته؟ أقول لك لجنة قادمة.. الآن حالا..

لام نفسه، يا لغبائه، عليه أن يتذكر أن هذه هي المدرسة فعلا وليست مستشفى المجانين، أي أنها تابعة فعلا لوزارة التعليم وليست الصحة بالتأكيد! كما أن هذا سيفقده الاحترام الذي اكتسبه للتو من البواب.

ولكن أين الأستاذ سليمان؟.. وأين باقي المدرسين؟

الأستاذ سليمان لم يعد يأتي للمدرسة سوى لمدة دقيقة واحدة يختفي بعدها، وكل الأساتذة استغلوا الفرصة وزاغوا من حصصهم لأجل الحصص الخصوصية..

فكر حسن في أنَّ هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا في مدرسة طبيعية، لكن بالنسبة لمدرسة أهلية قامت على تبرعات الأهالي، وكان الأستاذ سليمان هو عامود الخيمة الوحيد الذي يحافظ على نظامها ووجودها.. من الطبيعي جدا أن يصنع غيابه كل هذا الفرق:

أنت كنت غائبا، أليس كذلك؟

سمع البواب يقولها، فرد:

فعلا، كنت غائبا لمدة أسبوع ل....

قاطعه الرجل في هيستريا:

هل ستحكي لي تاريخ حياتك الآن.. تصرف يا أستاذ حسن.. تصرف، سنذهب كلنا في داهية..

بالفعل، بمثل هذا المنظر لن يذهبوا في داهية واحدة، بل ستين أو سبعين داهية على الأقل..

حسنا ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟

هل تسألني أنا؟.. قلت لك، تصرف يا أستاذ.. تصرف.

يتصرف، فعلا يجب عليه أن يتصرف، ولكن كيف؟.. أتاه صوت البواب محاولا المساعدة:

هل معك رقم الأستاذ سليمان؟.

كلا ولكن....

تذكر، كان معه رقم أحد زملائه فقط، وهو واسع العلاقات، يكفي أن يتصل به وهو سيخبر الجميع. أما الآن، عليه أن يفعل أي شيء بسرعة لجمع شتات هذه الفوضى. فماذا لو جاءت اللجنة، قبل أن يأتي باقي المدرسين.. سيكون المشهد تاريخيا، وستكون أكبر مذبحة في وزارة التعليم على مدار تاريخها.. لا يجب أن يترك الأمور تصل إلى هذا الحد:

إسماعيل، هل معك عصا؟

نعم، يا أستاذ

أحضرها حالا..

التقطها منه، ثم صعد على بسطة عالية، وصرخ في الكتلة العشوائية المنتشرة في الفناء، وقد قرر أن يطبق حرفيا أسلوب (العصا لمن عصى)..

تجمد الأولاد في أماكنهم للحظة مندهشين.. من هذا الذي جرؤ على هدم لذاتهم بهذه السهولة؟ وعندما رأوا الأستاذ حسن بعصاه، ازدادت دهشتهم.

غريب، لقد كان الرجل وديعا جدا منذ لحظات، ما الذي حدث له؟.. تجاوزوا عن محاولاتهم التعليلية لتغير سلوك الأستاذ حسن وانتبهوا.

كانت فكرته تقوم على صرف أغلب الطلاب، والإبقاء على نصفهم على الأكثر، لأنه لن يستطيع السيطرة على كل هذا العدد، الذي لا يمكن حشره في فصل واحد، وبهذا لو جاءت اللجنة المزعومة فجأة، فعلى الأقل ستجد الطلبة أهدأ ومستقرين داخل الفصول:

اسمعوا.. انقسموا إلى قسمين، نصف على اليمن ونصف على اليسار..

قالها حسن، وحاول أن يبدو حازما، وهو يحرك عصاه في الهواء.. كيف يستطيع أستاذ الألعاب العبقري السيطرة على هؤلاء في طابور الصباح:

نعم، هكذا، النصف الذي على اليمين يتجه إلى البوابة ويعود الآن إلى بيته والـ...

وقبل أن يكمل عبارته، انطلقت الصيحة: هيــه.. وانقض جيش التلاميذ على البوابة بكل أجزائِه؛ الميمنة والوسط والميسرة، بينما أسرع حسن يجري محاولا تدارك الموقف:

أقفل البوابة يا إسماعيــل..

وكان إسماعيل يحاول بالفعل -دون نجاح يذكر- غلق البوابة، وهو يلعن تسرعه في فتحها وإسلامه زمام الأمور لهذا ال(حسن) الذي لم يثق به يوما:

ساعدني يا أستاذ حسن، الـ...

وضاعت باقي عبارته، وسط طوفان الضجيج والغبار والأجساد المندفعة؛ لكن حسن أسرع يتحرك لمساعدته.

كانت البوابة ثقيلة ثقل اليوم ذاته.. تبا! أية بوابة هذه؟!.. لابد وأنها بوابة الجحيم نفسه، وقد انفتحت وهؤلاء الصغار أبالسة.. لا يمكن إلا أن يكونوا أبالسة..

وأخيرا، انغلقت البوابة. وقبل أن يسعد حسن بنجاحه الخرافي، استقرت نظرته على الطلبة الباقين، الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين، فأصابه الغم. أما هم، فقد كانوا أكثر منه بؤسا، وهم يلعنون حظهم العاثر، الذي جعلهم من دون خلق الله جميعا من طلبة هذه المدرسة يفشلون في الخروج. حاول أن يواسي نفسه:

لا بأس.. حتى تسهل السيطرة عليهم..

بينما حك البواب إسماعيل رأسه من أسفل غطاء رأسه القطني قائلا:

لا داعيَ لأن تتصل بباقي المدرسين يا أستاذ حسن.. قضي الأمر، وذهبنا في داهية والحمد لله..

لا تكن متشائما هكذا يا رجل.. ستقضى بإذن الله..

قالها محاولا أن يبدو واثقا مما يقوله، بالرغم من كونه لا يرى في الحقيقة سببا واحدا يدعوه للتفاؤل.. ودس يده في جيب بنطاله، ثم أشار للأولاد بالعصا قائلا:

أمامي، إلى الفصل..

سار القطيع البائس أمامه عابرين الفناء المغطى بأكياس المقرمشات الفارغة المبعثرة هنا وهناك، وبقايا عراك وضجيج التلاميذ الآخرين. تسلقوا الدرج الأكثر قذارة، في طريقهم للجلوس في أول فصل يقابلهم؛ فلقد كان كل واحد منهم ينتمي إلى فصل مختلف، وإلى صفوف دراسية مختلفة أيضا. وقبل أن يستقروا في مقاعدهم، سمعوا صوت البواب ينعق:

اللجنة وصلت يا أستاذ حسن..

***

الحقيقة، أن الأستاذ حسن كان شجاعا، قويا، ثابت الجنان، وبارعا في فن المراوغة الحوارية بحق. لا يمكن لأحد أن يعرف هذا، إلا لو نظر في وجه الموجه الصقري الملتوي، ليدرك أن لا أحد يستطيع أن يصمد أمامه أكثر من خمس دقائق قبل أن يعترف. يعترف بماذا؟ لا يعرف.. المهم أن يعترف بأي شيء، حتى يتخلص من عذاب تلك النظرات الكاوية. ربما لهذا السبب، فقد اكتفى زملاؤُه من أعضاء اللجنة بإرساله هو وحده، بينما جلسوا هم يستمتعون بالشمس في الفناء، متأكدين من كونه سيقوم بالعمل على أكمل وجه.

عاد الموجه يتحرك في المكان جيئة وذهابا، بطريقة شرلوك هولمزية محترفة، قبل أن يحدج حسن مرة أخرى بنظرة بوليسية مفاجئة:

أنا لم أفهم شيئًا مما قلته.. هل يمكنك أن تشرح لي مرة أخرى يا أستاذ.... قلت لي ما اسمك؟

حسن.. يا سيدي، حسن..

نعم يا أستاذ حسن.. فسّر لي ما حدث..

دعني أخبرك بالحقيقة التي كنت أريد أن أخفيها عنك، حرصًا مني على أعصاب سيادتك.. الحقيقة هي أن هذه المدرسة مصيبة، كارثة!!!.

هذا هو ما أراه فعلا، ولا حاجة بك لشرحه!!!.

كلا.. لا أقصد المعنى الذي فهمته سيادتك، بل أقصد أمرا أخطر بكثير..

أضاف حسن العبارة الأخيرة بصوت خافت، كأنه يحكي حكاية الغول لأطفال حمقى مذعورين:

وما هو هذا الأمر الأخطر بكثير يا أستاذ..... قلت لي ما اسمك؟

حسن، يا سيدي، حسن..

فهز الرجل رأسه:

نعم، نعم، حسن.. ما هو الأمر الخطير الذي تحكي عنه؟.

تلفت حسن حوله قائلا:

ألم تلاحظ يا سيدي بأنه لم يحضر في المدرسة بأكملها سوى عشرة تلاميذ؟.

بلى لاحظت، وهذا يدل على التزامكم فيما أرى.. أليس كذلك يا أستاذ.... قلت لي ما اسمك؟.

قال حسن في غيظ:

عبد السلام يا سيدي، اسمي عبد السلام!

فواصل الرجل هز رأسه:

نعم، نعم، حسن، اسمع يا أستاذ حسن.. لِمَ لا تدخل في الموضوع مباشرة؟

هذه المدرسة موبوءة يا سيدي.. حالتا إصابة بالحمى الشوكية في أسبوع، دعك من إصابة أخرى بالأنفلونزا الجديدة إياها..

وكان قد اقترب بوجهه من الموجه، الذي تراجع إلى الخلف في ذعر، بينما أضاف حسن في سادية متلذذا:

وقد كان التلاميذ الثلاثة في هذا الفصل بالذات..

بدا على الرجل الذعر أكثر، وبدأ في جمع أوراقه وهو ينفضها باحتراس، بينما أضاف حسن:

هل ترى سيادتك هذه الدكة التي تستند عليها.. لقد تقيأ أحدهم عليها مباشرة..

سحب الرجل يده كالملسوع وهو يقول:

كفى، كفي يا أستاذ حسن.. لقد فهمت كل شيء..

ثم دس باقي أوراقه في الحقيبة، وكاد يمد يده لمصافحة حسن، عندما رأى أن لا ضرورة لذلك في هذا الجو الموبوء، بينما قال حسن:

هل فهمت حقا يا سيدي؟.. ألست بحاجة إلى توضيح أكثر؟.

كلا، أرجوك..

حسنا، لا بأس.. كما تريد يا أستاذ.... قلت لي ما اسمك؟.

رد الرجل وهو يفرّ مسرعا من الفصل:

أنا لم أخبرك باسمي مطلقا!

obeikan.com

(10)

المحاكمة!!!

المحكمة من جديد، الغيوم الرمادية تتجمع في السماء في تناسق كئيب مع لون المبنى الكالح.

لماذا يشعر أن لون السماء ينطبع بداخله؟ عندما تكون زرقاء صافية، يكون ما بداخله صافيًا، وعندما تكون رمادية ملبدة بالغيوم، يكون ما بداخله رماديًا غائمًا.. ولماذا؟.. لماذا يشعر بهذا الضيق في صدره، بالرغم من أنّه كان سعيدا طوال هذا الأسبوع تقريبا؟ لقد صار بطلا في المدرسة بعد فعلته الأخيرة، حتى إنَّ الأستاذ سليمان قد شكره بنفسه، بل والأكثر أهمية أن إسماعيل البواب صار يحييه كل يوم أثناء دخوله ويعرض عليه كوبا من الشاي!

ما الذي يجعله يشعر بالضيق إذن.. ربما من الأفضل ألا يمر على المحكمة اليوم.. نعم، ليعود إلى البيت، يجلس مع أمه وأبيه بعض الوقت، منذ زمن لم يجلس معهما جلسة بحق. وعلى أية حال، لن تتحرك المحكمة من مكانها، سيعود غدا ليجدها كما هي، بنفس ضجيجها ومتابعها، أحزانها، وأفراحها..

قبل أن يتحرك مبتعدا، دقت طبول الرعد في السماء، وتساقط المطر. لا بأس، ربما من الأفضل أن يلجأ إلى مبنى المحكمة، ريثما ينتهي المطر. سيكون هذا أفضل من أن يعود إلى منزله مستحمًا ومصابا بالبرد، خاصة وأنه يعرف أنه لو حاول إيقاف سيارة أجرة، فلن تتوقف أبدا.

صعد الدرجات المغطاة بالغبار، الذي حوله المطر إلى طين طري، وانطبعت آثار حذائه وسط عشرات الآثار غيرها. فكر في الأستاذ سليمان، هل سيجده هنا؟.. لقد تغير الأستاذ سليمان كثيرا هذه الأيام، ربما منذ ذلك اليوم الذي أتى فيه معه إلى المحكمة لأول مرة؛ لم يعد ذلك الرجل المنضبط كالساعة، وما حدث يوم اللجنة يقول هذا بوضوح. حتى وجهه البدين المتورد، الذي كان يعكس صفاء ناعما محببا، صار أصفرَ، شاحبًا، معذبًا.. ما به؟.. هل حقا أنه....؟

وانقطعت أفكار حسن فجأة، فقد وجد نفسه لم يعد واقفًا على قدميه، لقد طار في الهواء، وسقط على الأرض الرخامية المترية.

نهض في ألم ململمًا شتات نفسه، ثم نظر في غيظ إلى ذلك العامل الذي جلس في براءة متصنّعًا إنّه لم يفعل شيئًا:

أنت!!!.

رد الرجل في برود:

نعم..

لقد وضعت ساقك في طريقي وجعلتني أسقط..

لم أفعل.

صعد الدم إلى رأسه.. ما الذي يريده هذا الكائن اللزج، ولماذا يتطفل عليه؟

اقترب منه قائلًا:

اسمع يا هذا لو حاولت ث....

قاطعه الرجل:

اسمع أنت.. ما الذي تفعله هنا كل يوم؟.. أنا سأبلغ عنك، وديني لأبلغ عنك.. وسترى ما الذي سأفعله.

وقبل أن يفهم حسن، وجد الرجل يمسك به من ياقة قميصه مستعدا للشجار. حاول أن يتخلص منه:

ابتعد عني أيها ال....

ودفعه بعيدا، لكن يبدو أنَّ الدفعة كانت قوية، لأنه رأى الرجل يصطدم بمقعده أمام الباب، يتدحرج على الدرج، ثم يستقر هناك بلا حراك..

والأهم، من أين أتى كل هؤلاء الناس الذي يجتمعون حوله؟!

***

هو، ما هو؟ بل من هو الآن؟.. خلف تلك الأسياخ الحديدية الصدئة، يقف كفأر صغير يطل مذعورًا من بين أسلاك المصيدة.

العالم الرمادي البعيد.. الضجيج، النسيج المختلط المعقد للعالم الخارجي، بينما في داخله تتماوج أفكار أكثر ضجيجا.

إنّه يريد أن يصرخ، يصرخ.. يطلب من الجميع أن يخرسوا قليلا.. بل يطلب منهم أن يخرجوا جميعا.. ما الذي أتى بهم إلى هنا؟.. ما الذي

يريدونه؟.. ولِمَ يحدقون به هكذا؟.. يشعر أنه يذوب أمام نظراتهم، يتبخر، يتلاشى..

إنّه لا شيء الآن. لم يعد له وجود.. كلا، بل هو ميت، محكوم عليه بالإعدام رميا بالنظرات؛ أليست هذه النظرات أقوى من الرصاص؟!.. والهمسات، الهمسات أيضا التي يتبادلونها بين نظرة وأخرى، قاتلة كسمّ بطيء ينفذ من أذنه إلى روحه. لِمَ يبدو العالم بهذه القسوة، بهذا الضيق؟ وكأنه قد انحصر في هذه القاعة الضيقة الكئيبة. الأنفاس المختنقة، وبقايا دخان السجائر المتجمد في الهواء.. إنه يكاد يختنق، شعر بالدوار، تعلق بأحد قضبان القفص الحديدية.

القاضي يصرخ طالبًا الصمت، فيسود الصمت.. صمت كئيب كالموت، كأن جسده صار مسجى بين التراب معزولا عن العالم الخارجي، وحيدًا بلا سند يحميه في تلك المحاكمة الكبرى. لم يكن يعي بالضبط ما يقال.. سمع اسمه يذكر مرة أو مرتين:

حسن رفعت حسن..

هل هذا اسمه حقا؟.. كم صار يكرهه.. يتمنى لو كان بلا اسم، كحجر ملقى في الشارع لا يهتم به أحد.

يكره اسمه، الذي سمعه عشرات المرات عند باب القاعة قبل أن يدخل القاضي، حيث كان يقف أحد تلامذته الأعزاء يهلل في ابتهاج:

محاكمة الأستاذ حسن.. جنيه واحد للتذكرة..

كان واضحا أن الفتى سيكون له شأن كأحد رجال الأعمال المحترمين في المستقبل. ببراعة يحسد عليها، استطاع الاتفاق مع الحاجب على الأمر، مقابل سمسرة معينة. وتذكر من جديد الصوت الذي أصبح له رنينًا معدنيا من كثرة التكرار وهو يدق في رأسه:

محاكمة الموسم.. جنيه واحد للتذكرة..

هكذا صار اسمه شهيرا جدا وجالبًا للثراء بشكل لم يتصوره أبدا. اسمه الذي لم يكن طوال عمره سوى جالب للفقر!.. خيل إليه أنَّ الفتى كان يمكن أن يقول: شاهدوا الأستاذ حسن في عرض السيرك الكبير مع الأسد والنمر في حلبة واحدة. عرض للسيرك، ربما كان سيكون أفضل بكثير من عرض المحكمة هذا. لكنه كان سيفضل القرود على الأسود والنمور التي يمكن أن تلتهمه.

جعلته كلمة (القرود) يعود على القاعة، ويفكر ثانية في المرأة القردة. فمع أن هذا ليس وقته، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيما إن كانت حاضرة الآن أم لا. كان التساؤل يدور بداخله، بينما عيناه تدوران، تبحثان عنها وسط الجلوس. ولمحها هناك، جالسة في مكانها الأثيري، أسفل مروحة السقف الوحيدة في القاعة.

لا يعرف لِمَ خيل إليه أنها ترمقه بنظرة خاصة. ولكن أليس هذا شيئًا طبيعيًا؟ كل من في القاعة يرمقونه بنظرات خاصة.. أليس هو الوحيد الذي يجلس داخل قفص؟.. لكن لِمَ أخافته تلك النظرة بالذات وجعلته يجفل؟!

عاد يسمع صوت محامي الدفاع، أي محاميه هو، يقول شيئا ما.. محاميه!!!.. أله محام؟!.. لابد وأن والديه البائسين هما من وكلاه. كان لابد وأن ينتظرا مشورته. أليس هو الخبير في أمور المحاكم، وكم من الأوقات قضاها يحضر جلساتها؟!.. خبير.. نعم، لقد صار خبيرًا في جلب المصائب لنفسه.. ليته لم يحضر محاكمة في حياته أبدًا واكتفى بشئونه الخاصة.

مشوشًا وصله صوت المدعي يقول كلامًا فارغًا على غرار: "اعتداء على موظف أثناء تأدية عمله، شروع في قتل و... ".. يا له من أفاق يهول الأمور.. شروع في قتل!!.. كل ما في الأمر أن ذلك العامل كان لزجا فضوليا إلى حدّ رهيب، وقد تعلق به. كان يريد أن يتخلص منه بأية طريقة، فدفعه بعيدًا. لكن ما ذنبه أن الرجل قد انزلق على السلالم، وأن رأسه قد شج، وأنه الآن بين الحياة والموت؟.. أليس هو الآخر الآن بين الحياة والموت؟.. بل ربما هو-كما فكر سابقا- ميت فعلًا.. فقد إحساسه بكل شيء، بوجوده ذاته.. إنه الآن روح معلقة في الهواء، تراقب القاعة من بعيد، من بعيد جدا..

لمح في أحد المقاعد القريبة الأستاذ سليمان منكسًا رأسه، كأنه يعتذر عن شيء ما.. شيء لم يفعله. لو كان لشخص أن يعتذر، فيجب أن يكون هو.. هو الذي يجب عليه أن يعتذر للأستاذ سليمان، لأنه جرّه إلى تلك الدائرة.. جعله يغرق في حضور تلك المحاكمات اللعينة. ماذا لو كان قد حدث له مثلما حدث له الآن؟ ولكن ليذهب الأستاذ سليمان إلى الجحيم، المهم هو، والمهم ما حدث له، لا ما يحدث للآخرين.

سمع صوت أحدهم يتحدث عن شاهد، أو ربما عن شاهدة.. بل هي شاهدة، لأنه لمح المرأة القردة تتقدم الصفوف الآن.

المرأة القردة!.. ترى ما اسمها الحقيقي؟.. وهل لها اسمٌ حقيقيٌّ من الأساس غير ما أطلقه عليها؟ لكن فيم يهمه اسمها الآن؟.. على ماذا ستشهد هذه المرأة، وتقسم بالله أن تقول الحق؟!

أنا يا سيدي أجيء إلى هنا كثيرا.. أحب أن أحضر الجلسات، لأنني أعشق جو القضايا والمحاكم، وكنت في يوم ما أتمنى أن أكون محامية و....

قاطعها القاضي:

اختصري من فضلك..

نظرت إليه في برود وأكملت:

لم أكن أنوي أن أحكي لكم تاريخ حياتي بكل تأكيد، لكنني أقول هذا لأوضح أنني بحكم تواجدي بصفة مستمرة هنا، كنت أرى هذا الرجل كثيرا..

ابتلع ريقه بصعوبة، هل كانت تقصده هو بـ (هذا الرجل).. ومن يمكن أن يكون غيره!

كان يبدو عدوانيا ويريد أن يتشاجر مع أي شخص. ولاحظت أن المحامين أنفسهم يتجنبونه ويتحاشونه بكل طريقة. وقد لاحظت أيضا

أنه كان يتحرش بذلك العامل المسكين كلما دخل، ويكلمه بطريقة سيئة، وكأنه يعمل عنده، وليس موظفا في الحكومة..

تبًّا لتلك القردة اللعينة!.. عدواني، وعامل مسكين، وهو من كان يتحرش به!.. فقط لو لم يكن داخل القفص، لجعلها تعرف كيف تقول الحقيقة. وسمعها تواصل روايتها الملفقة المثيرة للأعصاب:

ولقد رأيته في ذلك اليوم يفتعل مشاجرة معه، ويستغل الفرصة لدفعه، بحيث يبدو الأمر وكأنه دون قصد. لكنني كنت متأكدة أنه حتما كان يقصد و...

قاطعها القاضي من جديد:

وكيف كنت متأكدة من كونه كان يقصد؟.

لأنه كان يتحرش به دائما كما قلت سابقا..

وبدا من نظرتها كأنها على وشك أن تلتهم القاضي:

وأحب أن أضيف أخيرا، أنه ربما لو كان لي أن أقول هذا الرأي.. أرى أن تكشف المحكمة على قواه العقلية، فقد رأيته في إحدى المرات واقفا أمام زجاج سيارة يجذب أذنيه بطريقة مختلة..

القاضي يقول أشياء، وهو لم يعد يسمع. إذن فقد كانت المرأة القردة دائما هناك تراقبه. لم يكن يتخيل أنه يرى وجهها في كل مكان، لأن وجهها كان هناك بالفعل.. ولكن لِمَ؟.. لِمَ كل هذا؟.. هل رأت فيه هو الآخر قضية تستحق المتابعة؟.. أرادت أن تمارس عليه مهنة المحاماة

التي طالما تمنتها كما قالت؟.. أم كانت ترى فيه منافسا لها في متابعة القضايا، فرغبت في إزاحته عن طريقها؟.. ربما هي قريبة صاحب تلك القضية التي رآها عندها لأول مرة، وتحقد عليه لأنه قال إن قريبها يستحق الإعدام.. وربما هي خليط من كل أصحاب المحاكمات الذين شاهدهم.. ربما... وربما.. وشعر برجفة والسؤال الأخير يدب في رأسه؛ من هي هذه المرأة بالضبط؟

تابعها بنظره وهي عائدة إلى مقعدها، تهتز حقيبتها المليئة بقشر الفول السوداني. لم تكن حقيبتها فقط هي التي تهتز، بل كل شيء حوله يهتز، يتراقص، وهذا الألم الذي يضغط على صدره. إنه يتخيل حتما، إنه لا يكون مريضا أبدا عندما يعتقد أنه مريض، دائما كان يخبر نفسه بهذا.. لكن لماذا يظلم كل شيء أمامه تدريجيا، ويترنح ساقطًا على أرض القفص الحجرية!!

تمت بحمد الله

obeikan.com

عن الكاتبة

الاسم :هبة الله محمد حسن السيد.

تاريخ الميلاد:6 ديسمبر 1986

المهنة : مهندسة شبكات بشركة الشرقية لمياه الشرب.

العنوان :جمهورية مصر العربية-محافظة الشرقية-مدينة فاقوس-

hmhdecember@gmail. com

أهم الجوائز:

المركز الأول في مسابقة (مختبر السرديات بمكتبة الإسكندرية للقصة القصيرة 2010)، وضمت لجنة تحكيم المسابقة برئاسة الأديب إبراهيم عبد المجيد وكلا من الأديب سعيد سالم، والناقد شوقي بدر يوسف، والناقد الدكتور محمد عبد الحميد، والأديب منير عتيبة.

المركز الثاني في مسابقة مجلس وزراء الشباب والرياضة بقطر بالتعاون مع جامعة الدول العربية.

المركز الثاني في مسابقة أحمد بوفوز للقصة القصيرة بالمغرب عن قصة (ذاك الرجل).

المركز الأول مسابقة (جلال عامر) للأدب الساخر برعاية بوابة فيتو 2013.

المركز الأول في مسابقة صالون غازي الثقافي 2013.

المركز الأول في مسابقة مجلة همسة الأدبية الكبرى فرع القصة 2013.

obeikan.com

المركز الأول في فرع الرواية في مسابقة دار مير للنشر والتوزيع.

المركز الثاني في مسابقة الشاعر عماد قطري للمجموعة القصصية القصيرة.

المركز الثالث في مسابقة نادي حائل الأدبي، المملكة العربية السعودية.

الجائزة الثالثة في مسابقة د. نبيل فاروق لأدب الخيال العلمي (الدورة الأولى).

الجائزة الثالثة في مجال القصة القصيرة في مسابقة اتحاد كتاب الانترنت العرب (الدورة الأولى).

المركز الخامس في مسابقة مجلة (حياة) السعودية-فرع الأقصوصة.

جوائز أدب الأطفال:

المركز الثاني في مسابقة قصة بص وطل لأدب الطفل-فرع القصة، ورأس لجنة التحكيم كاتب الأطفال الكبير الأستاذ يعقوب الشاروني.

المركز الثالث في مسابقة دار أضواء البيان الإسلامي لرواية الطفل.

الأعمال المنشورة:

رواية (مصانع الخلود) عن دار مير للنشر والتوزيع 2010. (الرواية الفائزة بالمركز الأول في مسابقة الدار للرواية)

البحث عن دفء –مجموعة قصصية عن دار رواية-المملكة العربية السعودية 2011.

رواية من حكايات الطائر المهاجر (أدب أطفال) عن دار أضواء البيان الإسلامي.

أوراقي الأخيرة عن دار هيباتيا للنشر والتوزيع 2013. (المجموعة الفائزة بمسابقة عماد قطري فرع القصة القصيرة)

قصص في مجموعات جماعية تضم:

(أوراق رجل لم يهزم).. دار اكتب للنشر والتوزيع

(جبانة الأجانب) دار اكتب، ضمن القصص الفائزة في مسابقة التكية لعامها الأول

وريقات الشجر.. عن دار ليلى للنشر والتوزيع برعاية بص وطل

نقطة ومن أول السطر.. عن دار اكتب للنشر والتوزيع.

لفلسطين قصص شبابية واعدة.. مؤسسة فلسطين للثقافة، وقد قدم للمجموعة الكاتب السوري الكبير عدنان كنفاني.

اعذريني ومخاوف أخرى عن دار اكتب للنشر والتوزيع.

نصوص عربية(- دار شمس للنشر والتوزيع

عن الخيال نتحدث- دار رواية للنشر والتوزيع

دون حذاء أفضل.. دار دون للنشر والتوزيع بالتعاون مع مجموعة بشر الفنية والثقافية.

كتاب قصص الليل- إصدار مؤسسة بيت حواء السعودية-تقديم الكاتبة قماشة الغليان.

تحت الرمال.. سلسلة كوكتيل 2000-المؤسسة العربية الحديثة.

مجموعة أنهار محرمةعن دار الحكمة (القصة الفائزة في مسابقة فريق القلم الحر)

فضوليزم.. سلسلة الكتاب الساخر العدد الثاني عن دار إنسان للنشر والتوزيع

رؤيا.. دار إبداع للنشر والتوزيع.

الثائرون.. كتاب جماعي من أدب الخيال العلمي دار رؤيا.

قصص في مجلات أدبية-:

(رجل سعيد جدا)-مجلة الثقافة الجديدة – عدد يناير 2011.

(أشياء غريبة تحدث) وقصة أخرى –مجلة حياة السعودية في عددين مختلفين.

تحت الطبع:

مجموعة قصصية تضم القصص الفائزة بمسابقة الرائدية للقصة القصيرة.

obeikan.com

obeikan.com

لمسة الشر

محمود الجعيدي

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

جز على شفتيه غيظا وهو يتحسس أسنانه الأمامية المكسورة.. طعم الدماء المالحة في فمه يثيره. عبث بين أدواته الجراحية، حتى انتقى مشرطا حادا طويلا.. استدار للخلف ناحية طاولة جراحية قديمة الطراز، مقيد عليها شخص بإحكام شديد..

حرك المشرط بين أصابعه بتلذذ، وهو يبتسم ابتسامه سادية، مدركا أنه في طريقة لجني ثمار ضحيته.

المكان يضربه صمت مخيف من الداخل والخارج.. صمت يحمل طعم الموت.

الشخص المقيد يحاول إفلات قيوده بلا فائدة، غير عابئ بالدماء التي تسيل من مقدمة رأسه المجروح..

الموت يقترب منه على هيئة قاتل دموي، ولسان حاله يسأل: كيف انتهى به الأمر هكذا..

كيف؟..

كيف؟!

obeikan.com

obeikan.com

(1)

قبل شهر:

رنين الهاتف انتزعها من تفكيرها العميق.. كانت غارقة في عالم آخر من التساؤل والفزع. مدت يدها إلى المنضدة، فشعرت بالخدر فيها، وبدبيب النمل أسفل جلدها. نفضت ذراعها بقوة، لتحرك الدماء بها.. تناولت الهاتف، لتخرس إلحاح جرسه، قبل أن

ترد بصوت متبرم:

- حاضر يا (سلمى)، جايه دلوقتى

ضغطت على زر إنهاء المكالمة بقسوة معلنة عن حنقها المكتوم.. تناولت عدة صفحات من جرائد متنوعة قديمة كانت تقرا فيها، ضمتها إلى بعضها بأستيك رفيع، ووضعت فوقها مفكرة قديمة بالية الأطراف. انحنت على الأرض، لتفتح صندوقا قديما متوسط الحجم مستطيل الشكل، تجنبت النظر إلى محتواه، وبدأت شفتاها ترددان آيات من القران. وضعت رزمة الأوراق بداخله، ثم تأكدت من إغلاقه بقفل نحاسي كبير. رفعت ملاءة السرير، لتكشف عن مساحة واسعة خلفها، وضعت الصندوق فيها، وأعادت الملاءة مكانها لتخفيه تماما.

ظهرها العجوز صرخت فقراته عاليا عندما حاولت النهوض. آلام فقراتها الرابعة والخامسة كانت لا تطاق. تعلم انه لا مفر من عملية الغضروف، كما أخبرها طبيبها. اتجهت إلى الحمام، حيث استسلمت إلى دش بارد أنعشها، وأيقظ بقية خلايا مخها النائمة

أنهت حمامها، ثم غرست قلم الأنسولين في فخذها، لكي يعوض تقاعس البنكرياس عن أداء عمله، وليحرق مقدما ما قد تضطر إلى تناوله من أطعمة، في حفل الزفاف الذاهبة إليه، والذي تمنت لو كانت تستطيع عدم الذهاب، لكن ابنتها سلمى ألحت عليها بإصرار، مما اضطراها إلى قطع وعد بالقدوم، عليها الآن الوفاء به.

فتحت الدولاب، ونظرت إلى فساتينها المختلفة والمرصوصة بنظام، حاملة معها عرض الأناقة، التي لطالما اشتهرت بها.. بعضها أصبح غير مناسب لعمرها، لكن بالتأكيد مناسب لروحها.

انتقت فستان بعناية بالغة، ثم ارتدته على مهل. راحت تتأمل نفسها في المرآة، مثل شابة غضة تمر بطور المراهقة.. تتجاهل شعيرات بيضاء في رأسها، وتعاريج في وجهها، بالإضافة إلى جلد عنقها المترهل، رسمت سنوات عمرها الستين. تذكرت ملامحها عندما كانت شابة، أحاطت عنقها بعقد منظوم من الذهب، تعليقته على هيئة قلب، أضاف لمعه براقة حول جيدها.

انتهت من مهمة إعداد نفسها لاقتحام الدائرة المجتمعية التي ستقابلها في الحفل. هناك من تتمنى ألا تراه فيه.. احتمال ذلك ضئيل، لكنه موجود، وقد يطرح نفسه في أي وقت. خرجت إلى الحديقة الصغيرة المحيطة ببيتها، حيث أشعة القمر تبسط طياتها على مدخل البيت وعلى سيارتها، التي تربض في انتظارها، تمساحة قديمة من أيام التسعينيات. وانطلقت مباشرة إلى مكان الحفل، تاركة هواء الليل البارد يداعب وجهها، ويراقص خصلات شعرها كراقص تانجو ماهر...

وصلت إلى قاعة (25 يناير) أكبر قاعات المدينة.. اسمها يعكس جزء من حال مصر، في البداية كان اسمها (مبارك) وتغيرت إلى (25 يناير)، وفيما بعد أصبحت تعرف باسم (تسلم الأيادي)..

كانت القاعة محاطة بكمية لا معقولة من الأنوار المختلفة والبالونات العملاقة، فبدت مثل قصر أسطوري تم انتزاعه من قصص ألف ليلة وليلة. قرأت التهاني المكتوبة على البالونات سريعا.. وجدت اسمها واسم (سلمى) فوق إحداها، علمت عندها أن المائة جنيه التي أعطتها لعامل الفراشة قد آتت ثمرها. اخترقت حشد المدعوين بثبات، غير عابئة بصخب الدي جي، الذي يقوده شاب طويل الشعر، يقف في المنطقة الوسط بين الذكورة والأنوثة.

القاعة ممتلئة عن آخرها، وتكاد تصرخ للموجودين بأنه لم يعد هناك مكان لمزيد. بحثت عن ابنتها بقلق، خائفة أن تكون بين شلة الراقصين الموجودين في منتصف القاعة، الذين يؤدون حركات أقل ما يقال عنها أنها مبتذلة، تتوسطهم راقصة بشرية تحاول السيطرة على خصرها المتمرد غير المؤدب

من وسط الوجوه، وقع بصرها على سلمى بجوار عرش العروسين، ملك وملكة في ليلة تتويجهما. نداء الواجب يدعوها الآن..

اتجهت نحوهم وهي توزع عبارات التحية والتهاني:

- مبروك... عقبال أولادك... إيه الجمال ده... شكرا... ربنا يتمم عليكم بخير

لمن كانت تقول هذا الكلام؟.. للجميع. كانت شخصية محبوبة، ويمكن القول أنها مشهورة، بوصفها دكتورة، صاحبة مركز طبي، له سمعته الجيدة. لم تكد (سلمى) تراها، حتى تهللت أساريرها. سلمى، كانت خمرية البشرة، تحمل ملامح والدتها منذ ثلاثين عاما، متناسقة القوام، تحاكي القمر في جماله.. باختصار، أقل ما يقال عنها أنها فاتنة.

اتسعت ابتسامة العروس عن آخرها، في فستان أبيض بلا أكمام، مزركش من تحت الصدر حتى نهايته

- الف مبروك يا (إيمان)

- الله يبارك فيكى يا طنط (عفت) عقبال (سلمى)

- اهى جنبك... شدي حيلك معاها

ابتسم العريس وهو يبادل الدكتورة (عفت) التهنئة، مقيما ثمن عقدها الذهبي.. ثروة صغيره كفيلة بتغطية ديونه. من ناحية أخرى، كان في غاية السعادة.. بعد قليل، سوف يفتح صندوق الكنوز الذي بجواره، ناثرا كل محتوياته على الفراش..

اختلس النظر إلى سلمى مدققا في تضاريس جسدها وظهرها نصف العاري.. كان وقحا إلى حد ما. ابتسم قائلا في محاولة مرتعشة لأن يبدو مرحا:

- لو محتاجين عريس أنا موجود يا هانم

ارتفع حاجبا (إيمان) وهي ترمقه بنظرة تهديدية، ضحكت (عفت) وهي ترد قائلة:

- حاضر..

ثم تنحت بابنتها جانبا قائلة:

- بيتهيألي كده أنا عملت اللي عليا... هروح بقى

حاولت سلمى انت تعترض قائلة باستنكار:

- مش هتستنى نروح سوا

- ابقي خلى الحاج (علي) جارنا يوصلك مع بناته

تبرمت سلمى للحظة، لكنها في النهاية استجابت لرغبة والدتها...

في الحقيقة، اعتراضها كان صوريا، واهيا.. الأمر على هواها تماما.. وهل يوجد أفضل من حضور حفل بدون رقيب؟

اتجهت (عفت) نحو باب الخروج.. الطريق من باب القاعة إلى سيارتها يستغرق خمس دقائق، تزيد أو تنقص دقيقة حسب سرعتها. بعد ربع ساعة كاملة، كانت تفتح باب السيارة، وتنطلق بها مترنحة، كأنها تفر من شيء ما..!

قطعت كشافات سيارتها الأمامية رداء الليل الأسود بسيف أبيض متوهج، بينما بصرها يرتعش وتهتز الرويا من أمامها.. عقلها يسقط فوق وسادة مخملية ليترك مسئولية التحكم في وعيها.

انحرفت بالسيارة إلى جانب الطريق، الذي راح يتموج أمام بصرها مثل البحر.. جبال شاهقة من المياه تبرز بغتة وتحيط بها، قبل أن تشرق الشمس من بين قممها، ثم تختفي وسط الأمواج. تغوص خلفها بالسيارة ملاحقة إياها رغما عنها.. لكنها لم تكن تعلم..

لم تكن تعلم إن الطريق ينتهي عند هذه النقطة..

لم تكن تعلم أن هناك شجرة سوف ترتطم بها، وتحطم مقدمة السيارة..

لم تكن تعلم أي شيء.

فقط كانت تعلم أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة وسط الحطام، ووسط ألسنة الدخان الأسود المتصاعد من المحرك ببطء، تتابع دماءها وهي تسيل من أجزاء جسدها المحطم.. تشاهد دقائقها الأخيرة وروحها تستعد لتركها وحيدة، تغادرها كأنها في سباق محتدم مع الزمن..

الألم يزول أخيرا تاركا بقاياه على شفاهها المرتعشة.. جفناها يتحدان، يعلنان استسلامها، والتساؤل يدور كطيف خفي من حولها..

ماذا ستفعل (سلمى) بدونها؟...

ماذا...

ستفعل..

؟

(2)

(تشك)..

صوت الكاميرا عند التقاط الصورة.. دائما ينسى إيقاف تلك الخاصية. يعشق هذا الصوت، بالرغم مما يسببه أحيانا له من مشاكل.. كثير من الناس لا يحبون أن يتم التقاط صورهم من شخص غريب مثله.

تحسس الكاميرا وهو يستعد لخطف لحظة أخرى من الزمن وتخزينها.. طفل صغير عمره ما بين السادسة والسابعة، يلهو بكومة من أوراق شجر متآكلة الحواف، صفراء اللون.. تيار هواء ربيعي يهب فتتطاير الأوراق على الطفل، بعضها يلتصق بوجهه وبعضها يعلو شعر رأسه، بينما هو يضحك في سعادة وبراءة. التقط هذا المشهد، شاعرا بالامتنان لهذا التوقيت المثالي في كل شيء.

قفزت والدة الطفل من مكانها، وكأنما لدغها ثعبان.. جرت مبتعدة تحمل ابنها، دون أن تنسى إطلاق رصاصات التهديد على صاحب الكاميرا، متمثلة في نظرات متوعدة ممزوجة بالشك والريبة، ولسان حالها يقول إنه سارق أطفال محترف أو شخص مجنون. يرغب أن يلتقط لها صورة، لكنه يشعر أن ذلك قد يؤدي به إلى مصيبة.. لا يوجد أخطر من أم تحمي ابنها. فاكتفى بصيده الصغير رغما عنه

تحسس حروف اسمه (خ ا ل د) المنقوش علي كاميراته.. كان في العقد الثالث من العمر، رفيع، وسيم، خمري البشرة، يرتدي جاكت جلد

أسود اللون، أسفله قميص مفتوح الصدر، فوق بنطلون جينز أزرق.. يتجول في أرجاء الحديقة باحثا عن مشهد آخر يحرك داخله الإحساس بالجمال.

قليلون هم من يمتلكون هذا الإحساس، الذي أصبح على وشك الانقراض مثل الأسد الجبلي، الذي مر من أمام قفصه منذ قليل. قادته قدماه المتعبتان إلى ركن منزوٍ في الحديقة، تظلله أفرع شجرة كثيفة الأوراق. للحظة كان سيغادر، لكنه لمح بطرف عينيه اهتزاز أحد الفروع، مع بروز جزء من كتف فتاة فوق ذراع مشعرة

دار من حول الشجرة، حتى يتمكن من الحصول على صورة كاملة ورؤية أوضح. بالرغم من اضطراره للتسلل بخفة، وإصابته ببعض الخدوش في وجهه، إلا أنه في النهاية كان له ما أراد.. أمكنه الآن المشاهدة.

عاشقان يحتضن كلاهما الآخر، في قبلة ساخنة توردت لها وجنتا الفتاة كحبتي تفاح والتهبت شفاهها حرارة، بينما يد حبيبها تتجول بخبرة وبمعرفة مسبقة بين شوارع أسفل ظهرها وأزقته.

ابتسم وقد نال صيده..

صوب عدسته كاميراته كما يصوب الصياد بندقيته..

ثم..

(تشك)

الزمن توقف للحظة تاركا أثره على الصورة. صوت الكاميرا فضحه.. ارتكب خطئه المعتاد.. أدركه الآن.. أدركه متأخرا !

شهقة عالية خرجت من الفتاة وهي تنتفض من مكانها، مع نظرة غاضبة من الشاب.. دفعت حبيبها في صدره، وهي تصرخ بانفعال:

- أنت جايب اللي يصورنا

الدموع تنهمر منها، وكأنما تعرضت لاغتصاب مفاجئ، بالرغم من أن ما حدث، كان مجرد تسجيل لواقع يجرى بالفعل! حاول أن يدافع عن نفسه أمامها، تبادل نظرة سريعة مع (خالد) وهو يحاول تهدئتها قائلا:

- والله ما اعرفه... أنا مش عارف ده مين

اتجه ناحية (خالد) صائحا بغضب مصطنع، محاولا إحياء رجولته الميتة

- والنعمة ما أنا سايبك

قالها محاولا اخذ الكاميرا من خالد، الذي تشبث بها في إصرار قائلا بصرامة:

- كله الا الكاميرا... أنا بحذرك

- هات الصورة بقولك...والنعمة ما انا سايبك

تجمع الكثير من رواد الحديقة حولهما يحاولون التهدئة، بينما انسلت الفتاة هاربة بصمت خوفا من الفضيحة...

المرأة التي تحمل الطفل تتابع ما يحدث، ولسان حالها يقول: كنت أعلم من البداية انه شخص مجنون، يا إلهي، كم أنا رائعة.

صراخ، سباب، بعض الصفعات، لا مانع أيضا من بعض الركلات واللكمات لترطيب الأجواء

الوصف:خناقة شوارع

النتيجة: أتى أمن الحديقة، وتم اقتياد الاثنين إلى قسم الشرطة، في زفة شعبية لا ينقصها سوى راقصة درجة عاشرة

obeikan.com

(3)

رنين المحمول أيقظه من غفوته كمطارق صوتية ألهبت أعصابه النائمة. كان يشعر بإرهاق نتيجة المشاجرة، التي انتهت بالتصالح في القسم ومسح الصورة من الكاميرا، ثم عودته إلى شقته محاولا محو تعب اليوم.

مسح العرق الذي يكسو جسده، وهو ينظر إلى المروحة المتوقفة والمصباح المطفأ، فعلم بانقطاع التيار الكهربائي. أمسك المحمول بيده ناويا إعادة ضبطه إلى الوضع الصامت، إلا أن اسم المتصل جعله يعتدل في مكانه، وجعل غدته الكظرية تفرز الأدرينالين، منبهة إياه أن الأمر جد خطير..

جملة تأتيه من الطرف الآخر، تحمل النبأ الأسوأ، مكسوًا بغلاف صوتي أنثوي حزين:

- ماما ماتت يا خالد

رصاصة حزن مباشره انطلقت صوب قلبه، فاخترقته ثم انفجرت داخله.. وقتها أدرك أن الأمور لن تعود أبدا كسابق عهدها، وأن كل شيء لم يعد على ما يرام. فصل من الحب قد مات الآن.

حاول أن يبدو متماسكا، إلا أن صوته خرج رغما عنه مرتعشا باكيا:

- البقاء لله يا سلمى... أنا جاي

استمع لغلق المكالمة من الطرف الآخر وهو يرن في أذنه، ولبث في مكانه لدقائق شاعرا بتوقف المكان، الزمان، والحياة. وضع كلتا يديه على رأسه بحسرة.. سد نهر دموعه حطمه الخبر، فانهمر فيضا، تصاحبه اوركسترا البكاء، بينما قلبه بدا كزورق ضائع يتقافز بين شواطئ الأحزان.

تمالك نفسه بعد برهة من الوقت، ثم نهض.. جمع أشياءه الضرورية استعدادا للرحلة.. رحلة العودة. حمل حقيبته الصغيرة، وغادر الشقة اتجه إلى موقف (عبود)، وهناك طلب من سائق سيارة (بيجو)، توصيلة مخصوصة إلى (بور فؤاد) المدينة التي تربى فيها يتيما. تفحصه السائق للحظات من أعلى إلى أسفل، ثم وافق بعد اتفاق سريع على الأجرة.

غاص في المقعد، بجوار السائق، مرتديا نظارته الشمسية، ينفث النيكوتين طول الوقت من فمه وانفه بلا توقف، مثل مرجل بخاري قديم يحرك قطار بضائع. السائق يتابعه بشفتين مشمئزتين وهو يلعنه في سره. يحاول خالد أن يناوله سيجارة، إلا أنه يرفض معللا بأنه يكره التدخين

غريبة!..

تعجب، نظرا لأنها أول مرة يلتقي بسائق لا يدخن. هذا أشبه بمقابلة امرأة لا تحب الثرثرة!

لم تكن الدكتورة (عفت) والدته البيولوجية، لكنها قامت برعايته والاهتمام به كأم حقيقة له. إنه لا يتذكر بداية طفولته، كل ما يتذكره هو أنه وجد نفسه، بين الحواري، أسفل الكباري، وعلى الأرصفة ضال.. جائع.. خائف، وبلا أي مقدمات أو تمهيدات جاءته كالملاك، فلم يشعر بعدها بالألم أو الخوف. إنه يدين لها بكل الأمان، السعادة والحب.

...

وصل إلى بور فؤاد بعد خمس ساعات، اتجه مباشرة إلى مسجد علون حيث ستخرج الجنازة.. هناك انتظر حتى وصول الجثمان. كان يتمنى رؤيتها للمرة الأخيرة.. توقف أمام الباب الخلفي لسيارة الإسعاف، ناظرا إلى الجسد الملفوف، داخل القماش الأبيض.. حطمته رؤيتها هكذا..

مد يده وكشف الوجه بيد مرتعشة، بللت دموعه جزء من الكفن وهو ينظر إلى وجهها المستكين في سلام. ودعها بكلمات باكية، غير عابئ بمن يحاولون تهدئته.. يُوْدِع قبلاته على جبهتها، لتسافر معها إلى حيث لا ألم ولا شقاء. تعمد إلا يلمسها أحد غيره، وحرص أن يضعها بحذر في التابوت، وأغلقه عليها.

على باب المدافن، شاهد سلمى تتشح بالأسود وسط نساء أخريات، كتلة سواد كبيرة تشكل حلقة حزن، تتوسطهن الابنة المكلومة. صوت إحداهن يشير إلى اتجاه القبر حيث مثواها الأخير:

- في المنطقة (د)

أمام المنزل، حيث تم فرش الكراسي لأخذ واجب العزاء التقليدي،

كان الناس يعاملونه بصفته ابنا حقيقيا لها. جلس يستمع إلى القرآن ضاربا رأسه في الأرض، متجنبا النظر إلى عيون الموجودين، التي راحت تمسحه مسحا.. يعلم أن مجرد التقاء عينيه بعين أحدهم ستبدأ الأحاديث. مر الوقت وهو يفكر في خسارة والدته، ومن أعماقه أطلق تنهيدة قوية، جذبت انتباه الجالس بجواره، فالتفت إليه ومال نحوه يربت على كتفه، بينما انتهى المقرئ من قراءة الربع الأخير، فوقف في صف متلقي العزاء، في المقدمة المهندس (عمر) الأخ الأكبر والوحيد للمرحومة، يليه دكتور (عوض) شريكها في المركز الطبي، ثم هو، وأخيرا جارهم الأستاذ (علي).

الحاضرون كانوا يعلمون مدى محبتها له، فتم إيثاره بالجزء الأكبر من الاهتمام والمواساة. لم يكن قادر على التركيز فيما يقولون، فقط كان يردد بآلية، البقاء لله، حتى انتهى العزاء. فكر أن يقتصر الطريق ويبحث عن فندق يبيت فيه ليلته. كان يخشى مواجهة سلمى، لكنه لم يكن بقادر على الرحيل بتلك البساطة.

طرق الباب بهوادة، متمنيا أن تكون قد نامت، أو تكون غاضبة منه، فلا تفتح. سمع صوت خطواتها تقترب من الباب، صريره ما يزال محفور داخل عقله.. ثوان، ثم اطل وجهها، عيناها تحملان حزن الدنيا كلها. نظرت له بلوم كبير، ثم تنحت جانبا وهي تقول بألم:

- ادخل

تردد في مكانه، وحاول أن يتكلم، كاتما أنفاسه حتى لا تخرج منه رائحة السجائر:

- لا... أنا بايت النهارده عند (عصام) صاحبي... حبيت بس اتطمن عليكى

لا يتذكر أن له صديقا يدعى عصام، فقط هي مجرد حجة حاول أن يجعلها مقنعة

نظرت إلى عينه، لتكتشف كذبه المفضوح، ولتقول بحزم:

- بطل عبط... أنت اخويا ادخل

استسلم لأمرها.. ولج بقدمه اليمنى، دون أن ينسى مسح حذائه بالسجادة الصغيرة الموجودة على عتبة المنزل؛ لطالما أمرته الراحلة بذلك، ولطالما تعمد عدم الامتثال، إلا أن الأمر الآن يختلف. تلفت حول نفسه ببطء.. تنفس ببط أكثر.. عطر ماضيه وطفولته السعيدة تفوح رائحته.. سنوات عمره الأجمل قضاها في هذا المنزل.. ما زال يذكر كل ركن جيدا.. لكل ركن، ولكل قطعة أثاث، ذكرى، وحكاية عاشها، طبعت في عقله وقلبه بالغ الأثر. جو المنزل الدافئ، بالإضافة إلى الأشياء المألوفة حوله، جعله يشعر بالاطمئنان. عالم من الحب يقتحمه من جديد.

قادته سلمى إلى الصالون، الذي طالما اعتاد مشاهدة التليفزيون فيه..

- تأكل حاجة؟... شكلك على لحم بطنك من الصبح

أجابها وكأنه غير مقتنع مما يقول:

- مش عاوز اتعبك.... أنا كده كويس

اتجهت إلى المطبخ وكأنها لم تسمع رده، ثم أحضرت له كوب شاي وشطيرتين. جلست في مواجهته، وتركته ينهى الشطيرة الأولى، ثم يرشف بضع رشفات من الشاي، ثم اعتدلت في جلستها، فأدرك إنها قد أنهت واجب الضيافة والأخوة القديمة، وتستعد للانقضاض عليه.

غمغمت في عصبية:

- مش عيب كل الفترة اللى فاتت وماتسألش علينا

رشف رشفة شاي طويلة، محاولا إعطاء نفسه الفرصة للإجابة. قال والكلمات تكاد تحتبس في حلقه:

- معلش... أصل ماكنتش فاضي

فجرها استفزازه، وكادت أن تقفز من مكانها لتلكمه وهي تصيح باستهجان:

- ماكنتش فاضي!

يصد مرتبكا:

- كنت..

قاطعته بصوت حمل كل انفعالها دفعة واحدة:

- طيب على الأقل اتصل... أنت ناسي كانت بتحبك قد ايه؟

قال في ألم ممتزج بالمرارة:

- الكلام ماعادش يجى منه... بجد انا أسف

أنهى كلامه، ثم نهض معلنا أنه لم يعد يرغب بالخوض في هذا الحديث، وأن وقت الرحيل قد حان. قالت باستنكار وهي تنهض قاطعه الطريق أمامه:

- رايح على فين؟... انت هتبات هنا

- مايصحش يا سلمى... الناس

- إحنا الناس يا خالد... ده بيتك... أنت نسيت؟

- لا بجد مش هينفع

- اللي أنت بتقوله هو اللي مش هينفع

قال بإصرار وبلهجة لا تقبل النقاش:

- وأنا قلت مش هينفع

(4)

داخل غرفته القديمة توقف للحظات، قبل أن يغلق خلفه بابها الأبيض داخل قلبه البني في الحقيقة. تنفس الصعداء شاعرا بالراحة، إن مئات من عبارات الشكر غير كافية لتعبر عن مدى سعادته بالعودة.. شعوره بالارتياح راح يكتمل تدريجيا بذكريات طفولته ومراهقته تتحرك على الجدران، صدى ضحكاته ما يزال موجودا.. الماضي يحرك أشجانه وأمنياته، فيشعر بالمودة نحو كل قطعة أثاث. مسح ذرات التراب من على الكوميديون المجاور للسرير، وجلس على السرير يختبره بمقعدته وكأنها أول مرة له.. ما زال طريا نطاطا كما اعتاده. ألقى بكامل جسده عليه تاركا الخدر الجميل يسرى في أوصاله، ونام..

نام لفترة ليست بالطويلة، قبل أن تتنبه حواسه كلها دفعة واحدة. كان راقدا على جانبه الأيسر غارقا في العرق.. وامرأة سوداء محروقة الوجه تقف أمامه مباشرة، شعرها يتطاير من حولها، ثعابين سوداء شرسة تصدر فحيحا حادا مخيفا، يصم الأذن.. عيونها غير واضحة، إلا أنه أدرك أنها تحدجه بنظراتها.

نبضات قلبه تسارعت، وحاول أن يثب من مكانه، لكن جسده كان أشبه بالمشلول، غير قادر على تحريكه قيد أنملة. واثقة من عجزه، دنت منه بخطوات بطيئة، مخيفة.. مخيفة جدا! شعر بصعوبة في التنفس، الهواء كأنما يفر من الغرفة.. مدت يدها المعروقة نحو وجهه..

صوت فحيحها يصير أكثر حدة.. أظافرها السوداء على وشك أن تخترق عينيه..

وقبل أن تلمسه، عادت الحياة إلى أطرافه..

عادت بغتة، فاعتدل في مكانه كالملدوغ. جلس على طرف السرير يلهث.. كابوس طفولته يعاوده في غرفته القديمة، وكأنه كان في انتظاره ليلقى عليه ترحيبا لائقا. تناول زجاجة ماء، راح يتجرع منها على مهل محاولا غسل آثاره، حين وصله صوت بكاء من الجهة المقابلة، جمده في مكانه وأثار قلقه.

صوت سلمى يخترق الجدران مستغلا هدوء الليلة ليصل إليه. فكر للحظات فيما سيفعله، ثم حسم أمره وطرق باب حجرتها مناديا بتوتر:

- سلمى

آتاه صوتها من الناحية الأخرى عالقة به آثار البكاء:

- ثواني يا خالد... هافتح لك

- لا خليكى... بس أنت كويسة؟

فتحت له الباب مرتدية بيجامة، يبدو أنها ارتدتها على عجل. غمغم قائلا:

- أنت بتعيطى؟

أفسحت له المجال للدخول قائلة وهي تمسح خدها:

- ادخل

- لكن...

قالها وكأنه يقول حاضر.. بدا له أن من الأفضل أن يظل معها؛ لا يستطيع سماع بكائها والتظاهر بعدم الاهتمام.

اتخذت مقعدها أمام شاشة Laptop تتابع ما عليه باهتمام وحزن قائلة:

- حاسة ان روحها معايا ولسه موجودة في البيت

جلس في مواجهتها، فلم يتمكن من رؤية ما تتابعه. يعلم أنها تمر بأسوأ أوقاتها وأصعبها، والانهيار يزحف كعنكبوت بين أصابعها وشفاهها المرتعشة. عنوان واحد لكل هذا: الحسرة.

لا يجد ما يقوله، باحثا عن بداية حديث معها.. تجول ببصره في الأرجاء، ضاربا مقارنة بين ماضي غرفتها وحاضرها. ما زالت محتفظة بلونها الوردي، وإن كان قد تم إعادة طلائه، فصار أكثر وردية مما كان. المكتب الصغير تحول إلى مكتب كبير، كأنما نما هو أيضا مع الأيام، تتوسطه شاشة 32 بوصة (LED) متصلة الى (PC Computer) وقد تناثرت فوقه اسطوانات DVD، روتر من نوع (repotec) لمبته الصفراء (DSL) ثابتة الإضاءة. عملها كمهندسة كمبيوتر موهوبة تظهر جذوره فوق أرفف مكتبتها، على هيئة مجلات و كتب عن البرمجيات و الهاردوير.

تك... تك... تك

ضغطة منتظمة كل ربع دقيقة، تصل إلى مسامعه بالتزامن مع حركة إصبعها على الـ enter.. نهض من مكانه ينظر إلى ما تشاهده، فاستمرت فيما تفعله وكأنه لم يتحرك.. رأى صورا قديمة لوالدتها تم سحبها رقميا بالاسكانر على الLaptop . معظم الصور كانت تظهر فيها مبتسمة.. قال، وقد أثارت في قلبه الشجون:

- قد ايه كانت سعيدة

أومأت برأسها تأكيدا على كلامه، سالت دمعة على خدها كانت متجمدة منذ ثوان، حاولت إخفاءها سائلة إياه:

- تحب تشوف فيديو حديث ليها؟

اعتدل في مقعده قائلا باهتمام:

- يا ريت

تنقلت سريعا بين ملفات الجهاز قائلة:

- ده فيديو فرح إيمان... صاحبتي... شغالة في المركز الطبي معانا

حركت الماوس إلى منتصف الفيديو مستطردة:

- ماما ظهرت حوالي خمس دقائق لما جت تبارك

أوقفت الفيديو مع بداية مشهد ظهور والدتها.. بدأ المشهد باقترابها من الكوشة، حتى حديثها مع العروسين، وأوجزت له حوارهما الثلاثي.. سألها عندما شاهدها تنزل من الكوشة وتكلمها:

- بتقولك إيه دلوقتى

- كانت هتمشى وبتقول لي ارجع مع الأستاذ علي جارنا

- طيب ليه؟.. دي يدوبك سلمت ومشيت، ما طولتش!

- مش عارفة

ارتجف جسده وانعقد حاجباه وهو يتابع المشهد الأخير قائلا بتوتر:

- غريبة

سألته باستغراب:

- ايه اللي غريبة؟

بالرغم من أنه سمعها جيدا، لم يرد عليها.. دنا برأسه من الشاشة، حتى كاد أنفه أن يلتصق بها، حرك مؤشر الماوس للوراء قليلا.. وأعاد المشهد مرة ثانية.. ثالثة.. رابعة!

نظرت إليه بقلق محاولة فهم ما يفعل.. كان قلبه ينتفض كطائر مذعور داخل قفصه الصدري، وهو يرى نظرة خوف في عين (عفت) مع ارتجافة في جسدها، شعر بها وانتقلت إليه، ثم هزته من الداخل والخارج.. قام بتكبير الصورة إلى ضعفها، مما أثر على جودتها، وبات

وجهها يملأ الشاشة أكثر.. فأكثر.. أصبحت مقلتا عينيها تملئان كل محتوى الشاشة.. وعلم أن هذه القرنية عليها صورة ما يخيفها!

ردد وكأنه يحدث وهمًا يقف أمامه:

- أنت مين؟

- أنا مش فاهمه حاجه يا خالد.... أنت بدأت تخوفني

أعاد لها المشهد، وبدا يشرح، محاولا إقناع نفسه في نفس الوقت:

- تابعي حركتها بعد ما سابتك... هتلاقى انها وقفت في نص القاعة لحوالي دقيقة... دقيقة كاملة لوحدها وبتبص لبعيد... لو دققتى أكتر...

صمت للحظة، ثم استطرد وهو يقوم بتكبير المشهد لتبدو الصورة أكثر وضوحا لها:

- هتشوفي عليها نظرة خوف... وهتلاقيها اتحركت خطوة لورا، وكأنها كانت عاوزه ترجع لك!

قالت بحيرة وقد أثار كلامه شكوكها:

- قصدك ايه؟

أشار إلى الشاشة بإصبعه، دون أن يتحدث، لتتابع شيئا آخر..

بدت لها والنافذة الضخمة الموجودة في منتصف القاعة، التي تطل على موقف السيارات واضحة، أمكنها الآن رؤية السيارات المركونة..

سيارة والدتها التي ألفتها دائما، قابعة كتمساح ضخم بجوار أحد أعمدة الإنارة

قال مفسرا:

- المسافة من القاعة لمكان العربية بالكثير خمس دقائق... لو تابعتي التوقيت هتلاقيها وصلت بعد ربع ساعة.... فيه 10 دقائق مفقودة... ايه اللي حصل فيهم؟... ده لغز تاني!

أعادا مشاهدة الفيديو مرات أخرى، يرغبان في معرفة ما كانت تنظر إليه

- بس لو اقدر أشوف هي كانت بتبص على إيه

كان من الواضح أن ما تنظر إليه يقف مباشرة خلف مصور الفرح. لم يكن هناك انعكاس يمكن استغلاله. لنصف ساعة كاملة، وبكثير من الاحتمالات والمحاولات والأفكار، كانت النتيجة.. لا شيء!

عاد الأمل يراوده مع سبابة سلمى، التي أشارت إلى شاب يمسك محمولا ويقف بالتحديد خلف والدتها، قائلة:

- شايف الشاب ده... دقق كدا في اللي ايده... ده محمول

ارتجف قلبه بين ضلوعه وقد فهم ما ترمى إليه، كان هناك انبعاث لفلاش كاميرا تليفونه.. هذا الفتى يقوم بالتصوير من الناحية العكسية، بما يعنى احتمالا كبيرا لأن يكون قد وثَّق ما تراه (عفت) على هاتفه، وأن هناك أثرت يمكن اتباعه، وبداية..

بداية خيط!

تسللت خيوط النهار بين فرجات نافذة غرفتها، فأدركا أن ساعات الليل قد انقضت، وأنهما قضيا معظم ليلتهما في تفحص الفيديو.. ضربه الصداع تدريجيا حتى احتقنت عيناه. حرك "فروة رأسه" بكلتي يديه منشطا الدورة الدموية فيها، ووود لو يطلب منها كوب قهوة سوداء خالية من السكر، لكن صوت جرس الباب آتى فجأة صانعا زوبعة من الإزعاج. ايا من كان على الباب الآن، فهو شخص كان ينتظر انقضاء الليل بفارغ الصبر لكي يأتي.. بالتأكيد سيكون حاملا معه مصيبة وقعت، أو مصيبة على وشك الوقوع ولا يمكن تفاديها.

نهض من مكانه فاردا كلتا ذراعيه لينال دفعة من النشاط، قائلا بإرهاق:

- هاروح أنا افتح الباب

هبط درجات السلم الخشبي مصدرا صوتا عاليا، كي يعلم الطارق أن هناك قادما ويرفع يده من على الجرس. حين فتح، طالعه المهندس (عمر) بوجه بشوش مستدير، رسم ببرجل، بصحبة الحاج (علي) جاره وزميله في الصلع ومضاده المتمثل في نحافته المفرطة. بعد مصافحة سريعة بينه وبينهما، وكلمات ترحيب مختصرة وهو يفسح لهما المجال للدخول، اقتادهما إلى الصالون مدركا أنه سيكون محور الحديث.

كالملاكم المحترف، الذي لا يمهل خصمه فرصة الاستعداد للنزال، قال عمر وهو يجلس في مواجهة خالد:

- بص من غير لف ودوران... أنا مش عاجبنى قعدتك هنا في البيت مع سلمى

أدرك خالد أن توقعه عن فحوى الكلام كان صحيحا. احتمال كبير أن يكون الحاج (علي) هو من أبلغه، فكلاهما يبغي دورا موثرا في مسرح حياة سلمى، الأول يحاول أن يلعب دور الجار الآمين، والآخر يحاول لعب دور الخال المخلص.

- سلمى أختي واحنا متربين مع بعض و...

قاطعه (علي) محاولا أن يبدو دبلوماسيا ناعما:

- ماحدش قال حاجة... لكن أنت عارف كلام الناس

صوت نزول سلمى على السلم شكَّل حافزا لإنهاء الحديث، فهما لا يزالان يريدان ألا يظهرا إمامها كسيئ الظن. أومأ خالد برأسه متفهما.. لم يكن من النوع الذي يستسلم بسهولة، لكن كلامهما صحيح ولا فائدة من المكابرة، بقاؤه في المنزل معها ليس بالأمر المريح. نهض واقفا مقررا إنهاء هذا الدرس الأدبي السخيف، فالتقاها في منتصف الطريق إلى الصالة. سألته وهي ترى أمارات الضيق على وجهه:

- خير... قمت ليه؟

- معلش... مضطر امشي

- خالي كلمك في حاجة؟

- لا... هو جاي بس يتطمن عليك... ادخلي بس انتِ اقعدي معاهم

- خالد... عاوز تمشى فجأة دلوقتى ليه؟

قالتها بصرامة، فصعد السلم مسرعا محاولا إنهاء النقاش وهو يقول:

- أنا طالع آخد حاجتي... هابقى اتصل عليك وأعرفك هاقعد فين

تابعته حتى غاب تماما عن نظرها، ثم اتجهت إلى خالها وجارها، وهي تحدث نفسها..

...

opeikan.com

(5)

كان خالد يشعر بالحنق، ويتمنى لو كان هو من بادر بالرحيل قبل قدوم هذين الأحمقين.. ليمنحوه هذه الصفعة الباردة على وجهه وهو يرحل. قفز في تاكسي طالبا من السائق التوجه إلى فندق الكرامة، وإغلاق التلوث السمعي الذي يخرج من كاسيت السيارة. ومن باب الفندق إلى موظف الاستقبال، ثم استلقائه على سرير الغرفة، كان مرهقا إلى حد كبير، فأغلق عينيه مستسلما لنداء النوم، حتى دقت الساعة السادسة، مما يعنى انه نام ما يقرب من العشر ساعات وأنه لم يتناول الطعام منذ 18 ساعة، وأطلقت معدته تحذيرا مؤلما جعله يستيقظ من موتته الصغرى.

خرج إلى الشارع تاركا قدمه تقوده إلى اللا مكان.. وهو يحاول ترتيب أفكاره متسائلا ما الذي أودى بأمه إلى تلك النهاية.. الأمر غير طبيعي، والمطاردة غير الواضحة في الحفل، مع ذعرها، وتأخرها في الوصول إلى سيارتها، كل ذلك يقوده للسير إلى نقطة وصول واحدة: لقد تم قتلها!

لم يرغب في أن يطلب من سلمى إبلاغ النيابة، فهذا معناه استخراج الجثة وتشريحها، وهو لن يسمح بذلك، فضرره أكثر من نفعه. سوف يجد الجاني بنفسه مهما كلفه الأمر.. لكن عليه أولا أن يتوصل إلى الدافع!..

الطرقات تحمله، وقدماه تقودانه بلا وعي إلى غرزه (المنص)، التي تبدو في مكانها كأطلال قديمة تسكنها الأشباح، بينما الدخان الأزرق

يتصاعد من نوافذها مع قهقهات الزبائن وقرقعات أحجار الجوزة. هذا آخر مكان قد يحصل فيه على الراحة؛ لكن من قال إنه يبغي الراحة؟!

لم تتغير الغرزة عما تركها.. ما تزال حوائطها المصنوعة من الغاب مائلة وعلى وشك الانهيار، إلا أنها –وللعجب- صامدة منذ سنوات

من الداخل، كانت مثل الخمارات التي تظهر في أفلام الأبيض والأسود، باستثناء أنها لا يوجد بها خمور أو راقصة؛ فقط هناك أحجار الحشيش والدخان الأزرق والسجائر الملفوفة والسباب البذيء. استقبله (المنص)، صاحب المكان، بابتسامة أظهرت أسنانه الناصعة، وسط بشرته السوداء الأبانوسية. فخالد كان من الزبائن المهمين له في وقت من الأوقات..

مد يده يصافحه قائلا:

- خالد باشا والله لك وحشة فينك وفين أيامك يا برنس

- موجود في الدنيا... ايه أخبار حشيشك المضروب

اقتاده إلى طاولة خشبية صغيرة، أجلسه عليها قائلا بلهجة التاجر اليهودي المتمرس:

- عندي حاجة مغربي... قشطه... دماغها عالي قوي يا برنس

- عليا أنا الكلام ده يا منص انت فاكرني واد مدارسي... اقطع دراعي لو ماكانتش حنة على لبان دكر

أطلق المنص ضحكة عالية قائلا:

- مالكش حل يا برنس... ده أنت حبيبي

- حبيبك من أيام الجيزة... مش كدا

- لو ماعملتش معاك الدماغ اللي أنت عاوزها... ماتدفعش... استبينا يا برنس؟

- استبينا... أخبار أبو عبير إيه، لسه شغال في الحشيش؟... الراجل ده طول عمره غشاش

- لسه شغال زي الاكس... بس هو اليومين دول طالع الحج... بقت عادة عنده يحج كل سنة... وعشان كدا ربنا فتحها عليه والحكومة مابتقربش منه... والله بفكر اخطف لي حجه السنة الجاية

قالها، ثم ذهب وعاد سريعا بالجوزة مع أربع رصات حشيش. شد نفسًا ثم نفخ في مبسمها، فحرك الماء داخلها، جاعلا طريق الدخان سالكا من أي عقبات، ووضع أول حجر وهو يبتسم ابتسامة صفراء قائلا:

- شد يا برنس وادعي لي

مسح خالد طرف غابة الجوزة بطرف سبابته، كقائد اوركسترا على وشك بدء لحن من ألحان الماضي يعود ليعزفه من جديد. ثم، وبكل خبرة اكتسبها، سحب أول نفس.. الجوزة تصدر لحنها الخالد، والنار تتوهج فوق الحشيش تصفيقا لمهارته. يدرك أن المنص كان محقا في كلامه، فيبتسم وقد أحس بالراحة وبغشاء مخملي يلتف حول عقله قائلا:

- ده بيخش جوا النخاشيش

يرص المنص الحجر التاني ضاحكا:

- مش بقولك

غرق خالد وسط غيمة من الدخان الأزرق، وقد نسي كل ما كان يفكر فيه. الآن، هو أمير الزمان، وفي طريقة ليستولي على إمارة المكان.. انتهى من شد أربعه أحجار، أتبعهم بكوب شاي "حبر أسود":

- أنا الكينج

أغمض عينيه لبرهة قليلة من الوقت متلذذا.. شعر بنعومة في رأسه، عقله يتدثر بالأغطية الدافئة، ليغرقه في نوم عميق دون أن يشعر، فابتسم المنص مرددا:

- طول عمرك دماغك خفيفة

ثم اخرج هاتفه، وأجرى مكالمة سريعة، قبل أن يتركه ويتجه إلى زبون آخر. كان يتصرف كرجل أعمال محنك، يدرك قيمة وقته جيدا.

صفعة قوية على وجه خالد الصغير.. الخمسة أصابع الرقيقة تحولت إلى خمسة سياط ترسم آثارها على خده.. نظر متبرما إليها غير قادر على الرد، والدموع في عينيه متحجرة، بينما رسمت ريشة الغضب بصمتها على ملامحها. لم يكن يخطر بباله شدة غضبتها، فألجمته المفاجأة، عندما نزعت السيجارة من فمه. هوت عليه بالصفعة الثانية، والتي جعلت الصفعة الأولى تبدو كمداعبة رقيقة..

- انا مش حذرتك المرة اللى فاتت وأنت وعدتنى؟... القلم الأول علشان أنت بتشرب، والتاني علشان خلفت وعدك معايا

- مش هعمل كدا تاني

بلهجة تهديدية مخيفة، قالت له الدكتورة عفت:

- لا انا عاوزاك تعملها، ابقي شوف المرة الجاية هاعمل فيك ايه

في خدره اللذيذ داخل الغرزة شعر بها تقترب منه، ردد خائفا متذكرا تهديدها:

- ماما... أنا مابشربش سجاير... دى جوزه وعليها حنة ولبان دكر

قبضت على ياقة قميصه، وبصوت غليظ لا يشبه صوتها أبدا:

- قووووم

فتح عينيه على يد ثقيلة تقبض على ياقته وتقتاده إلى الخارج بقسوة.. حاول الاعتراض أو المقاومة، لكن الخدر اللذيذ كان ما يزال يسري في أوصاله، فبدا مستسلما لصاحب اليد، حتى وجد نفسه يطير في الهواء، قبل أن يسقط بجوار زملائه الحشاشين داخل بوكس الشرطة، ملاحقين بسباب بذئ من المخبر ذي الشارب الضخم صاحب اليد الثقيلة وهو يغلق عليهم باب البوكس. تلفت من حوله باحثا عن المنص فلم يره.. بالتأكيد فر بنفسه تاركا زبائنه لمصيرهم الذي اعتادوه

مر بذلك من قبل، لذا فهو ليس خائفا. فقط هو حزين.. لقد خذلها، ثم خذل نفسه و.. ولم يكن يتمنى ذلك.

(6)

مكان جديد.. اختبار جديد، وزفت وقطران على رؤوس موظفيه

دخل (أحمد منصور) مدير نيابة بؤر فؤاد مكتبه، واضعا نظارته الشمسية، مخفيا خلفها إرهاق عمل الأمس. كان في العقد الثالث من العمر، وسيما كنجوم سينما السبعينات، بينما بشرته السمراء ولهجته القبلية تدل على أصوله الصعيدية.

ثاني أيامه يبدأ الآن، في نيابة بور فؤاد الجزئية، بوصفه وكيل النائب العام. سكرتير النيابة هو أول من استقبله بابتسامة حاول أن يجعلها ودودة قدر الإمكان، والموظفون كل على مكتبه. أول أيام عمله كان بالأمس، بدأه باجتماع مقتضب معهم، راسما لهم سياسته وأسلوبه في نقاط محددة ودقيقة أثارت لديهم حالة من الاستياء:

- أنا باكون في النيابة 8 ونص... اللي هيجى 8 ونص وخمسة هيتشطب عليه

يدركون أنه يلقي بتهديد حقيقي وليس مجرد هراء حديث. زميله السابق قضوا معه أفضل أعوامهم، التي انتفخت فيها جيوبهم. يدركون أنهم لن يستقيموا معه، والحل الوحيد أن ينحني هو لا هم. فبدؤوا يخططون لإرسال الشكاوى فيه. لن يأتي أرعن يدعي النزاهة ليقطع أواصر تلك المحبة بينهم والأوراق ذات الخمسين جنيها وأخواتها.

دلف إلى مكتبه زافرا في ضيق من التسيب والفساد، إرث زميله السابق. استند بظهره إلى الكرسي الجلدي شاعرا بنعومته.. رائحة الطلاء الجديد احتفالا بقدومه تطغى على الجدران.. التكييف يزمجر بارتباك معلنا أنه قد يتوقف في أي لحظة.. ثلاجة صغيرة أسفل النافذة الوحيدة بالغرفة، ذكرته بأمر ما كان يود تأجيله، لكنه يشعر برغبة ملحة فيه الآن. قاطعته طرقة حانية على الباب، يدلف بعدها الساعي قائلا باحترام مبالغ فيه:

- القهوة أجيبها دلوقتي يا أحمد بيه؟

- ماشي بس اضبطها مش زي امبارح

دقائق وعاد الفراش بها، مع زجاجة مياه معدنية صغيرة، وضعهما أمامه ثم انسحب بهدوء. فتح درج مكتبه وأخرج كمًا كبير من القضايا المحفوظة، والتي تم إهمالها بعمد وبغير عمد، وخلع نظارته السوداء، واستبدلها بنظارة طبية، تساعده على مجابهة ضعف نظر ورثه من والدته، ليتمكن من فض اشتباك الحروف. فرز الملفات، وبدأ في تصنيفها في مجموعات، على حسب أيهم يجدر متابعته والفصل فيه أولا.

ينجو من الغرق في الملفات المتكدسة، حين يصاب موتور الثلاجة بسكتة قلبية، توقفه تاركا ارتجاجة مزعجة في بابها وقاعدتها المعدنية، فيحمل حقيبته الجلدية وما تحويه من ملفات، ويرتدي نظارته السوداء مرة أخرى راشفا آخر جرعة في فنجان القهوة، ثم يضع قناع

الصرامة على وجهه طالبا من سكرتير النيابة ورئيس القلم الجنائي القدوم معه.

- إلى أين يذهب هذا المتعجرف

سؤال طرح بين الموجودين، ومن يُجِب عنه –بالتأكيد- لن يحصل على جنيه من الذهب

...

ثلاجتنا ليست ثلاجة.. لا تحتاج إلى كهرباء.. لا يتم حفظ الأطعمة فيها. في الحقيقة، هي لا تمت للأجهزة الكهربائية بصلة.. هذه ليست أحجية، إنها واقع.. واقع موجود في مكان واحد فقط: في قسم شرطة بؤر فؤاد.

الثلاجة، هي غرفة داخل غرفة موجودة بالقسم، ولا تظهر في الخريطة التفصيلة للمبنى.. مكان، على الورق غير موجود، في الحقيقة موجود. بات (خالد) فيها ليلته غير قادر على التحدث مع أحد. ربما يطول ليوم.. اثنين.. عشر.. بقاؤه مفتوح حتى يقرر ضابط المباحث أي تهمة سيوجهها له.

لماذا يسمونها الثلاجة؟

- علشان يسقعوا لك القضية

بتلك العبارة أجابه عن تساوله أحد الموجودين معه.

رسميا، هو غير محتجز بالقسم. لا يوجد أي إثبات في دفتر الحجز. يقوم بذلك ضابط المباحث (فؤاد)، حتى يتجنب مضايقات النيابة في

الاحتفاظ بأمثاله في الحبس الاحتياطي. خلال ذلك، يقوم بإحضار إذن النيابة، ثم يجهز تحريات المباحث، وأخيرا الجائزة المنتظرة: إلصاق تهمة لا يمكن الإفلات منها.

الداخلية تطلب منه إنجاز القضايا وإحضار متهمين.. هو يفعل المطلوب منه بالطريقة التي يريدها.. طريقة أخلاقية، طريقة غير أخلاقية.. الإنجاز في العمل وعدد القضايا هو الفيصل في تقييمه.

كانت الغرفة صغيرة، قذرة الجدران، بلا نوافذ؛ فقط هناك فتحة تهوية صغيرة تتوسط بابها الحديدي المصمت، كتف من الطوب الأحمر في أحد الأركان بارتفاع متر عن الأرض، به حنفية نحاسية، وقاعدة حمام بلدي، هو ما يمكن أن نطلق عليه جزافا وصف حمام.. قنبلة مسموعة من الروائح القذرة تنفجر منه بين الحين والآخر. سحابة بيضاء تكونت عند السقف، نتيجة دخان سجائر لا تنطفئ، ورأس شيطان مبتسم يتشكل داخلها تدريجيا، أبًا حنونًا يراقب أولاده من أعلى.

الجو خانق، لدرجة جعل بقاء الملابس على الأجساد رفاهية غير مقبول بها.. صفير حاد يرن في أذن خالد بلا انقطاع.. الوقت يمر عليه ببطء، وهو سجين مكبل الحركة، غفل عنه زبانية هذا المكان الملعون.. يسمع حديثا يجرى بالقرب منه، بين رجل يبدو عتيدا في الإجرام وشاب صغير السن أبيض اللون ناعم البشرة، حول لقاء حميمي سيدور بينهما الليلة تحت البطانية عند غلق الأنوار، مقابل علبتي سجائر.. نهض من مكانه وابتعد عنهما، شاعرا برغبة ملحة في القيء، تجاوز الأجساد شبة

العارية، وألقى بنفسه بجوار الباب، كل شيء مزعج وقبيح تشكل أمامه في تلك اللحظة، يحتاج إلى مساحة قليلة من الخصوصية، وكثيرا من الهواء النقي

صوت قفل باب الغرفة الأولى يصل إلى مسامعه، وأقدام عديدة ثقيلة مع أصوات متناحرة غير مفهومة، يتبعها صوت يقول:

- يا أحمد بيه كدا ماينفعش... كان لازم تعرفنا انك جاي

صوت يرد في قوة:

- واللي انت بتعملوه ده هو اللى ينفع؟...

قفل الباب الثاني يفتح، ليظهر على عتبته (أحمد منصور)، وخلفه عدد لا باس به من أمناء الشرطة، بالإضافة إلى (فؤاد) وقد احمر وجهه غضبا. يستطرد أحمد قائلا بحدة:

- كله يطلع، ولو ده اتكرر تانى يا (فؤاد) انا هاخليهم يعملوا بلاغات

ثم نظر إلى وجوه من بالثلاجة نظرة متفحصة.. التقت عيناه بعيني خالد لثوان، فأشاح هذا الأخير بوجهه وهو يتخذ مكانه وسط طابور المحبوسين، الذين ما انفكوا يتبادلون مزيجا من نظرات الخوف والارتباك. لديهم إحساس قوي بأن إيابهم قريب، وأن سلطة فؤاد قادرة على هزيمة سلطة هذا المدني ذي الملابس المهندمة، بينما أمناء الشرطة في قلق انتظارا لإشارة فؤاد..

انتهى أحمد من التفتيش القضائي وغادر القسم، في حين وقف فؤاد من وراء قضبان نافذة مكتبه يراقبه كذئب يدرس قوة غريمة، ثم، وبابتسامة صفراء متوعدة، قال بصوت يمتلئ كراهية:

- شكلك عاوز قرصه ودن صغيرة يا احمد.. بيه

obeikan.com

(7)

تفقد خالد هاتفه وهو يستلم بقية أشيائه من أمانات الشرطة. قرأ الرقم المكتوب بجوار السهم الأحمر نصف الدائري.. 6 مكالمات لم يرد عليها يزينها اسم (سلمى). لم يكن بقادر على مكالمتها الآن.. يعلم أنه قد سبب لها قلقا دائما، ولكن سوف تخرج منه الكلمات لتزيد من قلقها. الأفضل له استعادة توازنه النفسي والجسدي أولا.

من الحبس إلى الفندق مباشرة توجه.. شعره المنكوش، رائحته الكريهة، بالإضافة إلى ملابسه التي اتسخت وأصبحت مسكنا خيريا للحشرات، مظهر جعل موظف الاستقبال ينظر إليه بشك وهو يناوله مفتاح غرفته لاعنا أمثاله. تجاهل الأمر، وصعد إلى غرفته واضعا لافتة ممنوع الإزعاج على صدر الباب، واتجه مباشرة إلى الحمام واضعا جسده أسفل حنفية الماء البارد، لينزل من على جسده حاملا معه أوساخ الليلة السابقة.

بجسد عاري الجزع خرج واضعا فوطة كبيرة على نصفه السفلى، وألقى بنفسه على السرير طالبا الراحة المتمثلة في نوم عميق. مثل مومياء قديمة ظل راقدا لا يتزحزح من موضعه، فقط صوت أنفاسه المنتظمة ما يخترق سكون المكان ليدل على كونه ما زال حيا، حتى يأتي رنين هاتفه مزعجا يقطع نومه. خمن أن سلمى هي المتصل، وحدسه كان صحيحا، وإذ بصوتها يأتي متلهفا:

- الو... خالد... أنت فين دلوقتى

- أنا في فندق الكرامة... لسه صاحى دلوقت

- طيب أنا جايه لك... معايا حاجة عاوزاك تشوفها

- حاجة إيه؟

- كل الصور بتاعت الفرح

- ازاي جبتيها؟

- لما أشوفك هاحكيلك... هاعدي عليك كمان ساعة

- هاستناكِ في مطعم الفندق

- اوكى... سلام

ساعته الرقمية تشير إلى التاسعة مساء، وزمجرة أمعائه الغاضبة ذكرته بأنه لم يذق الطعام منذ أمس، ومعدته الفارغة تطلب الكثير الآن.. ارتدى ملابسه وهبط إلى مطعم الفندق، واتخذ مائدة جانبية تطل على الطريق، ليعطي لنفسه أكبر مساحه من الخصوصية، وليتمكن من رؤية سلمى حين قدومها.

رائحة الطعام الممتزجة في خليط شهي تسللت إلى أنفه مفجرة براكين جوعه. طلب وجبة طعام أتى عليها في دقائق معدودة، ثم استكان في مقعده مخرجا علبة سجائره.. تأملها للحظات مسترجعا شريط ذكريات ليلة أمس، ثم ألقاها أرضا ساحقا إياها بقدمه، وطلب فنجان قهوة سوداء راح يحتسيه على مهل، وهو يفكر أن سلمى قد تأخرت عن ميعادها، والأمر يدعو للقلق، فليس ذلك من شيمها!.. كانت أعصابه

تتناحر مسببة له ألما في بطنه وهو يحاول أن يشغل نفسه نظر إلى انعكاس صورته في المرآة.

دلفت فتاة جميلة إلى المطعم جاذبة انتباه الجميع.. العيون الجائعة تعبث في اشتياق بين ثنايا جسدها، الذي كان كفاكهة طرية تعلن عن نضوجها وطيب أكلها للمشتهين، صدرها الناهد يتراقص بلا خجل ضاربا معنى مهما للأنوثة، ومكتفيا بالدور الثانوي، فدور البطولة كان من نصيب نصفها السفلي، الذي كشف عن عنفوانه خلف الفيزون الرخو، فحطم كل المشاعر الإنسانية وأثار أقسى الغرائز بشاعة. أشاح خالد بنظره عنها شاعرا بالغثيان نتيجة ريح أطلقتها، وهي تمر من جواره، فلمح سيارة سلمى تتوقف أمام المطعم مباشرة، قبل أن تخرج منها حاملة اللاب توب الخاص بها. أشار إليها من خلف زجاج النافذة ليعلمها بمكانه، وما هي إلا دقائق وكانت تجلس أمامه.

- تشربي حاجة؟

- لا... خلينا في المهم

كأنها لم تقل شيئا، صاح بالنادل أن يأتي بعصير ليمون لها، وقهوة ثانية له. ثم أعطاها كل تركيزه. وأمام عينه المتسائلة، كان عرض صور الزفاف على شاشة اللاب توب.

- قولي لي الأول جبتيها ازاي؟

رشفت رشفة صغيرة من العصير، ثم أسندت ظهرها إلى الكرسي باسترخاء المنتصر، وبدأت تحكي له كيف حصلت على الصور..

...

أدركت سلمى الواقع الذي لا تريد.. حقيقة أنها فقدت أعز الأحباب، وهي الآن وحيدة، لا أحد حولها سوى نفسها. قضت ليلتها طويلة جفاها النوم، وخيمت قيود الحزن البغيضة عليها، تثقل صدرها فتنساب دموعها خلسة رغما عنها. طويل هو ليل الحزن، عندما ينشر عباءته السوداء فيكبل بها الروح.. كم تفتقد وجود خالد بجوارها. لقد حاولت الاتصال به عدة مرات، لكن الرنين دائما ما يستمر بلا إجابة، حتى خشيت أن يكون قد قرر الرحيل كما رحل من قبل.

صنعت لنفسها كوب شاي، ثم جلست أمام اللاب توب عازمة على استغلال مهاراتها الرقمية.. صوت افتتاحية الويندوز المميزة تنطلق كشاب يستيقظ من نومه استعدادا للعمل المتواصل، ويحفزها للبحث عن الشخص الذي قام بالتصوير.. هناك ثلاثة احتمالات لا رابع لهم:

1- أنه قريب أو صديق للعروسة (إيمان)

2- قريب أو صديق للعريس

3- شخص متطفل، وهذا احتمال ضئيل، نظرا لأن الحفلة بكروت الدعوة.

رجحت الاحتمال الثاني، مؤجلة البحث في الاحتمال الأول، ولاغية الاحتمال الثالث. من صفحتها الشخصية على الفيس بوك، انتقلت إلى صفحة صديقتها (إيمان)، ومنها إلى صفحة زوجها.. وببحث قصير في

قائمة أصدقائه، عثرت على هدفها المنشود يبتسم في سماجة، واسمه (عوض يسري)

انتقلت إلى صفحته الشخصية مباشرة.. بدا لها كصيد سهل إيقاعه، مع وجود قائمة طويلة من البنات ضمن أصدقائه الافتراضين، السواد الأعظم منهن غير مصريات.. هذا الفتى لديه حلم الشاب المصري في العثور على ملكة الجمال الأوربية، ذات الأموال المكدسة، والتي تقضى حياتها على الانترنت بحثا عن غرامه الذي لا يقارن!

قامت ببحث سريع بالصور على جوجل، تحت عنوان فتاة جميلة.. انتقت صورة لفتاة شقراء الشعر، خضراء العيون، بيضاء الوجه.. الصورة المثالية لحلم شباب الفيس. استبدلت وردتها الحمراء التي تميز صورة صفحتها بتلك الصورة. الآن وضعت الطعم في السنارة، وحان وقت رميها في الماء للصيد الثمين. لكن لابد أولا من جذب انتباهه.

تسجل الإعجاب بالبوستات الخاصة به.. تنتقى البوستات بعناية، وخاصة المتعلقة بالحب والوفاء.. لا مانع من مشاركة البوست والتعليق عليه لإضفاء الاهتمام..

((عندما تحب لا تعترف بحبك إلا عندما تتأكد أن مشاعرك صادقة))

تضغط إعجاب

((لا تجرح من تحب حتى لو جرحك فلا تقابل جرحها بجرح بل اقبله بكل حب لأنه إن كان حبا صادقا فتأكد انه غير مقصود))

إعجاب ثم تعليق: (أصعب شيء جرح الحبيب)

((كن لها الحبيب والصديق والزوج شاركها وقت فرحها ووقت حزنها علمها معنى الرومانسية بكل جمالها وروعتها))

إعجاب ثم مشاركة على صفحتها

تعلم أن إشعاراتها تصل إليه.. لا ترغب في أن تبدأ هي بطلب الصداقة؛ من الأفضل أن يأتي ذلك منه، وقد أتى سريعا على جانب صفحتها، مع تنبيه صوتي مميز.. (عوض يسرى) يرغب في أن يكون صديق لك.. توافق.. ثوان ثم يأتيها إشعار برسالة قادمة منه، حاملة معها أولى الثمرات. كان نصها كالتالي:

- شكرا على قبول طلب الصداقة

- عفوا

- ممكن نتعرف... أنا سيد 30 سنة... رجل أعمال

- نرمين.... رسامة

- أنت رقيقة قوى يا نرمين

- كلك ذوق

- أنت منين

- من بور فؤاد

- يااااه إيه الفرصة السعيدة دي... أنا كمان من بور فؤاد

- معقول ده! احنا كدا ممكن نطلع جيران

- أنت منين من بور فؤاد؟

- مش دلوقتى لما نعرف بعض اكتر

- طيب ما احنا عارفين بعض من زمان... بقالنا 10 دقائق

- هههههههه

- يااااه ضحكتك جميلة قوي

- شكرا... أنت الأجمل

- ممكن اشوف صورتك الحقيقية

- لا... انا اخاف تستغلها وتعمل فوتوشوب عليها

- انت مش واثقة فيها

- واثقة بس خليها بعدين... دي صورتك الحقيقية؟

- اه وربنا... عندي كمان صورة وانا بشيل حديد

- انت على كدا رياضي

- وبكتب شعر كمان... تحبي اكتب لك حاجه؟

- مش دلوقتى... مش عارفه ليه حاسة انى شفتك قبل كده

obeikan.com

- تصدقي وانا كمان... طيب ممكن نتقابل

- بيتهيألي اني شفتك من كام يوم في فرح الدكتورة ايمان

- إيه ده.. معقول... انتِ كنتِ في الفرح بتاع الواد (هيثم)

- ايوه... انا كنت هناك موجودة

- طيب انت حلوه زي العروسة؟... صاروخ يعني

- عيب

- انت اللي كنتِ لابسة سواريه أحمر وضهرك مكشوف... مضبوط؟

- لا مش انا... انت اهم حاجه عندك الجمال؟

- لا، أنا آخر حاجه بافكر فيها جمال البنت.... اهم حاجه عندي عقلها وطريقة تفكيرها

اهتزت شاشة الكمبيوتر أمامها، وكأنها ستنفجر من كذبه...

- طيب بصى انا هوريكى شوية صور.... انا مصورها في الفرح وتقوليلي انت موجودة في أي صورة

- بس ده سر بينا... اوعى تعرف حد عني

- مش عيب... خليكي واثقة فيا.

oberkan.com

27 صورة مختلفة، تفحصتها سلمى بعناية باحثي عن مبتغاها.. تلمح الفستان الوردي المميز لوالدتها من ناحية الظهر.. هدف.. الصورة المطلوبة.. الكادر الأهم

قامت بحفظ ال 27 صورة في ملف خاص، تحسبا لما قد تحتاجه، ثم أنهت المحادثة معه، تاركة البناء الذي شيدته منذ قليل ثابتا، فربما سيكون له دور آخر.. من يعلم!

- سلام دلوقتى... مضطرة اقوم

- طيب هنتكلم تاني امتى

- بكرة في نفس الميعاد

- الشعر ده عشانك (لقد دب الهوى لك في فؤادي... دبيب دم الحياة إلى عروقي).

قرأته، ثم فصلت التيار الكهربائي عن الكمبيوتر مباشرة.

.....

انتهت سلمى من قص ما حدث، تاركة لخالد الانبهار بذكائها، في نفس الوقت الذي مرت فيه الشابة ذات الفيزون، فوضع يده على أنفه تحسبا لموجة ريح أخرى؛ لكنها عبرت بسلام. فتحت سلمى ملف الصور مجددا على اللابتوب قائلة:

- بصراحة الصورة مش موضحة هي كانت بتبص على إيه... لكن واضح انه هيكل راجل

تفحص الصورة بعين مصور محترف.. ظهر (عفت) يبدو واضحا جدا في الصورة، وأمامها شخص يبتسم ببلاهة، واضح أنه المعني بتلك اللقطة..

رسم خطا وهميا من رأسها إلى الأمام حيث تنظر.. الخط يقوده كسهم مباشر استقر به المقام في منتصف رجل يقف بمفرده من بعيد، خلف أحد كشافات الإنارة، فبدا في الصورة كشبح غير واضح الملامح، وإن كان يبدو انه ضخم الجثة. تفحص الصورة التي بعدها، فخلت من وجوده.. عاد للصورة التي قبلها، فبدا نور ضئيل من الأمل يضئ أمامه.. مازال الرجل واقفا في مكانه، وكأنه يدرك أن كشاف الإنارة سوف يمثل له حائط صد من اللقطات غير المرغوبة.. الجديد هنا انه لم يكن يقف بمفرده، كانت بجواره امرأة، ظهر وجهها واضحا في الكادر، وهي تصافحه. ضغط زر تكبير الصورة، ليبدو وجهها أكثر وضوحا..

- تعرفي مين دي؟

- دي (أم سارة) بنت عم إيمان

- متأكدة؟

- متأكدة قوي... أنا قابلتها كام مرة في المركز عندنا وهي جاية تزور إيمان

- بتشتغل؟

- بتشتغل ممرضة في عيادة دكتور... مش متذكرة اسمه

- تعرفي عنوانها؟

- لا.... بس ممكن اعرف من إيمان

- اتصلي عليها وهاتي عنوانها ورقم تليفونها لو ينفع

أخرجت تليفونها المحمول الوردي اللون، ضغطت على رقم 6 اتصال سريع. استمع إلى جزءها من الحوار بدون أن يكون عالما برد الطرف الآخر، وإن كان يمكن تخمينه

6 شارع روجينا عمارة 42... رقم التليفون... اوكى

أنهت المكالمة منتظره منه أن يخبرها بالخطوة القادمة.. هربت عيناه إلى الحائط المواجه قائلا بعد تفكير:

- مش هينفع نروح لها دلوقتى.. الوقت متأخر... اتصلي بيها على رقمها... وافتحي معاها كلام.. وبكرة نروح نزورها ونتكلم معاها

أنهت ما تبقى من كوب عصير الليمون دفعة واحدة، لترخي أعصابها المشدودة كأوتار الكمان.. ضربت أرقام الاتصال الخاصة بأم سارة.. لتجد الصوت الآلي يجيبها برتابة:

(الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقا حاول الاتصال في وقت لاحق)

وضع يديه على فمه مفكرا وحاجباه يتعقدان على هيئة الرقم 8 الهندي. عاودت سلمى الاتصال من جديد، لتعاود معها تكرار سماع الرسالة. قالت وهي تضع الهاتف في حقيبتها:

- يمكن في مكان مافيهوش شبكة

رد باقتضاب شديد:

- يمكن

نظر إلى ساعته، عقربها الأصغر في منتصف الطريق إلى النقطة العاشرة.. نهض من مكانه مستطردا وهو يمد لها يده:

- تعالي أوصلك وبكرة نبقى نروح لها

عند خروجهما من باب المطعم، استقبلتهما موجة هواء باردة، محذرة إياهما من بداية ليلة شديدة البرودة.. اتخذت مقعدها أمام عجلة القيادة، ولاحظ هو أن الزجاج الخلفي للسيارة ملئ بالدباديب والأرانب، عجز معها عن مشاهدة ما خلف السيارة.. هناك كمية لا بأس بها أيضا على تابلوه السيارة. حمل أرنبا ضخما من على التابلوه، وألقاه على المقعد الخلفي، حتى يتمكن من رؤية الطريق، فنظرت إليه بتعجب وكأنها تنظر إلى أحمق بدرجة مجنون، وكادت أن تسأله ما ذنب الأرنب !نظر إلى المارة بأعين شاردة، غير عابئ بإعادتها الأرنب إلى مكانه، وهو يتساءل عما ينتظره في الغد..

(8)

الليل يا ليلى يعاتبني

ويقول لي سلم على ليلى

الحب لا تحلو نسائمه

إلا إذا غنى الهوى ليلى

بسط الظلام عباءته السوداء، على بيوت بور فؤاد المنخفضة، ذات الأسقف المائلة، بينما المصابيح المتناثرة في الشوارع تحاول محاربة سطوته الملكية. وميض في السماء أعلن عن نفسه، فكشف عن قمر ضبابي يقود سحبا مكتظة... قطرات المطر التي بدأت تتساقط شكلت حافزا قويا لعودة طوارق الليل إلى منازلهم.

في طريق شبه خال، تتساقط على جوانبه أوراق الشجر، التي استسلمت للموت بعد معاناة لم تدم طويلا، فيدحرجها الهواء دون رحمة، قبل أن تدهسها الأقدام، شدت مدام (سامية) على يد ابنتها (سارة) مسرعة الخطى في طريق العودة إلى بيتها. لعنت داخل نفسها من كان سببا في تأخرها.. لعنت أيضا زوجها الذي رحل عنها، تاركا لها ابنة صغيرة تتحمل كامل مسئوليتها، ومضطرة إلى اصطحابها معها يوميا إلى العيادة. الحمل ثقيل عليها، وكونها امرأة مطلقة فذلك عبء إضافي. ومع ذلك، ألقت همومها وراء ظهرها، واستمعت إلى المثل الإنجليزي الذي يقول لا تبكِ على اللبن المسكوب.

كانت ذات جمال باهر، أورثته إلى (سارة)، التي كانت تشعر بإرهاق يتناسب طرديا مع عمرها الصغير. زقاق ضيق يعبران من أمامه، يخفي بين لحاف ظلامه سيارة ملاكي، داخلها رجل غير واضح الملامح يتنفس بعمق.. بخار الماء الخارج مع أنفاسه يصطدم بزجاج السيارة من الداخل صانعا لوحة ضبابية، وصوت وديع الصافي يشدو من كاسيت السيارة..

إلى عينيك يا ليلى

لأجلك يطلع القمر

خجولًا كله خفر

وكم يحلو له السفر

كان قد استيقظ هذا الصباح وهو يشعر بتوهج لم ينطفئ حتى الآن، بفعل الساعات، أو بفعل برودة تلك الليلة.. الشوارع خالية كما يحب أن تكون. مسح بخار الماء المكثف على الزجاج، وانتظر دقائق حتى ابتعدت هي وابنتها، ثم أدار موتور السيارة وتحرك بها بهدوء. اقترب من الأم وابنتها راسما على وجهه أفضل ابتسامه لديه.. حاول أن يتحاشى النظر إلى صدرها البارز، الذي يصفق بحماسة على رقص أردافها ولحن دقات كعبها العالي. توقف بالقرب منهما وبصوته الرخيم قال:

- اتفضلي يا مدام سامية أوصلك

صوته مألوف بالنسبة لها.. التفتت نحوه وقد عرفته، ابتسمت قائلة:

- مش عاوزه اتعب حضرتك... أنا قربت اوصل خلاص

فتح لها الباب المجاور له قائلا بتودد:

- لا وده يصح برضه... اتفضلي اركبي، الدنيا ليل

ترددت للحظات، ثم ركبت بجواره، بعد أن وضعت ابنتها على المقعد الخلفي

- شكرا... كلك ذوق

- لا... ولا يهمك

رائحة معطر السيارة اختلطت بالدفء، في مزيج عفوي، فانتشت روح سامية بالسكينة والهدوء. نظرت له من أسفل عينيها بحنكة الأنثى.. تعلم مكانته الاجتماعية المتميزة، وكونه أعزب فهو يمثل لها هدفا محتملا. بالتأكيد ليس هذا وقتا مناسبا لصيد زوج، لكنه وبالتأكيد أيضا وقت مناسب لوضع الطعم ونصب الفخاخ.

عدلت من وضع شعرها، فانسل في ليونة ساحرة ساكبا لونه الكستنائي على كتفيها. حركت ساقها بحركة بدت عفوية، فكشفت المزيد من بياضها.. الشغف لمع داخل عينه، ونظراته انتقلت سريعا بينها وبين الطريق جائعة. بدا واضحا عليه أنه لم يذق طعم اللحم منذ فترة طويلة. تنتظر منه الخطوة الأولى.. البداية. هناك قواعد صارمة بخصوص ذلك، لكنها لن تنتظر طويلا، سوف تقوم باللازم إذا اقتضى الأمر.

كانت امرأة طيبة، وليست سيئة كما يظن البعض. فقط، هي تحاول إثارة إعجابه بما تملكه من مقومات جسدية.. تعلم أنه لابد من عناصر جذب في المرأة، آخرها العقل وأولها الجمال؛ عكس ذلك يتم وصفه تحت بند العجائب والغرائب.. من حسن الحظ إنها تمتلك العنصر الأهم. تدرك مدى تأثير جمالها على الرجال، حتى وإن استمروا بالعويل والصراخ بأنه آخر ما يفكرون به؛ لكن نظراتهم تفضحهم دائما.. دائما.

المهارة هنا تكمن في استخدام إمكانياتها، مع عدم التفريط، إلا حصريا ولصاحب النصيب فقط، على يد كاتب شرعي (مأذون)، ووسط مؤتمر صحفي يعقبه حفل جماعي (فرح). تدرك حكمة المثل الإنجليزي الذي يقول (لا تشتري بقرة إذا كنت تحصل على اللبن مجانا).. تبا لهؤلاء الإنجليز الأوغاد، ولكل أمثلتهم المتعلقة بالألبان.

ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يرى سارة وقد استكانت في المقعد الخلفي، مغمضة العينين، تاركة نفسها تحت سطوة سلطان النوم، ثم قال:

- نامت

- هي كدا... شوية تلاقيها صاحية وبتتنطط... وفي ثانية تنام

- الأطفال كلهم كدا... دماغهم مافيهاش مشاكل... ربنا يخليها لك... طالعه قمر زيك

- ميرسي قوي

يفرش شباكه عليها بإحكام، وبحنكة الصياد المتمرس.. حك صدره في شوق، بحركة لا إرادية وهو يتخيلها عارية.. يرغب أن يغوص برأسه بين نهديها ويمضغ حلمتيها، يتنزه قليلا في مدنها، صانعا طريقا دوليا بين فخذيها. ترى في عينيه الشوق لشيء، بالتأكيد ليس هو ما تفكر فيه.. حاسة الخطر لدى أنوثتها تضرب أجراس الإنذار بلا هوادة.. خطر.. احترسي.. الأمر غير طبيعي.. اهربي.. شعرت بالتوتر، نظرت من حولها بقلق.. الشوارع فارغة... الظلام الدامس لا يقطعه سوى كشاف السيارة.. التفتت إليه بما يشبه التوسل والاستعطاف، لكن ملامحه انقلبت في لحظة، وشيطانه يتراقص بين قسمات وجهه، ويكسر قناع طيبته..

زجاجة ذات سائل نصف شفاف، أخرجها على حين غرة، رش رذاذها عليها

صرخت بفزع والسائل يخترق عيونها وجيوبها الأنفية:

- لاااااا

مدت يدها تحاول الخروج من السيارة المسرعة وإلقاء نفسها بدون تفكير، لكن الأبواب الكهربائية المغلقة بإحكام، قضت على رغبتها بالإعدام الفوري. سائل أصفر يسيل من بين ساقيها، بعدما فقدت القدرة على التحكم في مخارجها، وجسدها يعلن انهياره، وانتهاء مقاومتها الضعيفة، وسقطت فاقدة الوعي..

نظر إليها وقد تكومت كجوال فارغ، وابتسم في نشوة بالغة، ثم رش رشة صغيرة على وجه سارة تحسبا للظروف.. اختار منطقة غير مأهولة توقف بها، تاركا نباح كلاب غير موجودة، يصنع خلفية موسيقية مع إطفاء أنوار العربة تماما. أخرج شريطا لاصقا عريضا، وحبلا قصيرا.. شد وثاقها جيدا، ثم وضع جزءً من الشريط على فمها، ثم تحسس جسدها بتلذذ الامتلاك.

عاد إلى مكانه خلف عجلة القيادة، يمشي الهوينى مصدرا صفيرا من بين شفتيه، وقد أدار المساحات لتمحو قطرات المطر وما علق من أتربة على الزجاج الأمامي، وانطلق بالسيارة ومعه صيده الطازج..

obeikan.com

(9)

توقفت سلمى بالسيارة أمام منزلها. طوال الطريق لم تتبادل كلمة واحدة مع خالد، بينما اكتفى هذا الأخير بمتابعة الطريق والتفكير في مئات الاحتمالات والظنون. أفاق من شروده حينما توقفت السيارة.

التفتت نحوه قائلة بحنق:

- حمد الله على السلامة

- الله يسلمك... الظاهر أن أنا سرحت

- واضح

- معلش أصل كنت بفكر في حاجات كثيرة قوي

ابتلعت ريقها بعصبية قائلة:

- طيب انزل... أنت هتبات النهارده هنا

تنهد قائلا في إصرار، متذكرا الدرس الأدبي الذي تلقاه منذ يومين:

- الموضوع منتهي... أنا جاي اوصلك وراجع تاني

خرج من فمها صراخ، هو عبارة عن مزيج من أنت مش اخويا لو مادخلتش، وأنا مش عاوزه اشوفك تاني، وعبارات أخرى لم يسمعها جيدا بسبب انفعالها. كمحاولة يائسة أخرى حاول أن يعترض قائلا:

- لكن...

أجهضت محاولته من بدايتها، مقاطعة كلامه بردة فعل عفوية، تمثلت في انطلاقة الأرنب المسكين نحوه، كقذيفة مباشرة من مدفع يدها. أدرك عندئذ أنها قد وصلت إلى مرحلة اللا عودة، وأن محاولته الرفض أشبه بالانتحار. دخل إلى المنزل حاملا الأرنب معه وهو يقول محدثا إياه:

- ذنب الأرنب ايه طيب

...

obeikan.com

(10)

كان هادئا جدا، ومدركا تماما مدى تمكنه من صيده الثمين. حفرة صغيرة حاول تفاديها فعبرت فوقها العجلات الخلفية رغما عنه، وارتطمت رأس (سامية) نتيجة الرجة، فتنهت من خدرها. فتحت عينيها شاعرة بالضربة كنبضات كهربائية متقطعة في منتصف جبهتها.. وقد سارع قلبها من وتيرة نبضاته دافعا الدماء في عروقها، ومحطما هدوئه المعهود.

كان صوت أنفاس (سارة) يصل إلى مسامعها معطيا إياها جزء من الاطمئنان، بينما الشريط اللاصق على فمها يجعلها عاجزة عن الصراخ. حكت فمها فيما حولها، حتى تفكك التصاقه بجلدها، وفتحت فكها عن آخره غير مبالية بالشعيرات التي انتزعت مع الشريط.

قربت يديها من فهمها، واستخدمت أسنانها في فك الحبل الذي يقيدها. كان الحبل غليظا ومربوطا بإحكام، إلا أنها استمرت في محاولتها بلا كلل.. أسنانها تتزحزح من مكانها داخل عظام الفك، وقد تغادر موضعها إلى الأبد، لكن بعد دقائق كانت قد تمكنت من فك قيود معصميها، ثم قدميها..

تحسست جسد سارة في لهفة، باحثة عن أي علة فيها أو نقص في أطرافها.. لو كانت تستطيع عد شعرها لفعلت. تدرك أن الخاطف لن يكتفي باعتداء جنسي، وتظن أنه قد يقتلها؛ لا إنها متأكدة.. ضمت ابنتها إلى صدرها خائفة عليها من مصير منتظر وهي تتذكر محادثته

السابقة معها وتدرك كم كانت عمياء. جزت على شفتيها وهي تتساءل كيف سمحت له بخداعها بتلك الطريقة..

اهتزاز العربة وعدم توقفها يعنيان أنه ذاهب بهما إلى وكر نائي. بالتأكيد لا يعلم أنها قد استيقظت، تناولها لكميات كبيرة من القهوة هذه الليلة، هو الذي احدث هذا الخلل في خطته. صراخها لن يكون ذا فائدة، ومن الأفضل أن تستغل عنصر المفاجأة، فمن يدري، ربما تستطيع النجاة.

انزاح أثر المخدر تماما، وأدركت أنها في صندوق السيارة الخلفي. رفعت يديها تحاول أن ترفعه بقبضتها لكنه كان محكم الإغلاق، فعدلت من وضعها، أسندت ظهرها على الأرضية، سحبت نفسا عميقا، وبكل قوتها دفعت بقدميها، مستغلة عضلات الفخذين، لتعطي قوة دفع أكبر، فأصدر صريرا بسيطا وهو يتزحزح قليلا من مكانه، مما أعطاها قوه وإصرارا..

نسمة الهواء الباردة التي دخلت إليها كضيف مرحب به أكملت إفاقتها، ورؤيتها لجزء من السماء كخط اسود سميك مرصع بنقاط فضيه بين شطري الصندوق جعل الأمل يزداد. لكن القفل صمد في تحدٍ غريب، والصاج فقط هو الذي يرتفع قليلا مسببا انبعاج في استقامته الخارجية..

ضربت الغطاء بيدها في يأس عدة مرات، وهي تهمس بمرارة بينما دموعها تنهمر على وجنتيها:

- لاااااااا... لاااااااا

راحت تقولها بهستيريا، وقد فقدت قدرتها على التركيز والتفكير المنظم، حتى باتت على وشك أن تفضح نفسها. لم تكن بهذا الإصرار في يوم من الأيام، لكن مصير ابنتها المتوقع يشكل لها دافعا لكي تناضل. تتحكم في أنفاسها تدريجيا حتى تبدأ في الانتظام، وتخرس نفسها بصعوبة.. تتضرع إلى الله آه... يا رب... يا رب، ثم تتحسس الجوانب الداخلية باحثة عن شيء ما قد يساعدها.

نور المصابيح الخلفية يرسم لها طريقا غير مباشر، وفكرة قد بدأت تتحرك داخل رأسها، لتبدأ التنفيذ فورا، فلا وقت لإعادة التفكير أو حساب المخاطر.. أزاحت البطانة التي وراء المصباح الأيمن، ثم أدارت لمبته بحركة عكسية و فصلته من مكانه. كان ساخنا جدا، أصاب أصابعها بحروق من الدرجة الأولى، إلا أنها تحملت ذلك بصبر، وهي تضعه بالقرب منها ليشكل لها مصدر إضاءة ممتاز.. استمرت.. دفعت الغطاء الزجاجي بيديها من الداخل إلى الخارج، فانفصل عن مكانه، قبل أن يهوي على الطريق ليتحطم إلى شظايا.

في ذلك الوقت كان الحماس يجعله غير واع بما يحدث، منفصلا تماما عن العالم الخارجي. لم يكن يخطر بباله أن قطعة اللحم ذات القشرة الجميلة الموجودة بالخلف تمتلك إصرارا صعب المراس. وكانت هي في هذه اللحظة تمد يدها بحذر من الفتحة لتلامس الهواء.. جزء منها أصبح حرًا أخيرا.

أخرجت ذراعها بالكامل، تلوح به في كل اتجاه بلا هدف.. تحتاج فقط أن يراها قائد أي سيارة، فينقذها..

السيارة تنطلق وسط الطريق المظلم، بينما ذراعها يخرج من فتحة المصباح الخلفي، يعارك الهواء بلا كلل.. وكل شيء ممكن، ولكن..

هل الأمور الجيدة يمكن أن تحدث بمثل هذه البساطة؟..

ربما..

وربما لا!

obeikan.com

(11)

استلقى خالد على فراشه القديم، وأغمض عينيه ببطء تاركا أنفاسه المنتظمة تعزف سيمفونية النوم في سكون الليل. الغرفة مظلمة، كما يحبها أن تكون، لا يبددها سوى بصيص نور خفيف يأتي من الصالة، وينعكس في خجل على زجاج باب الغرفة. الظلال السوداء تنسحب تدريجيا، وتتجمع لتشكل جسدا هلاميا راح يقترب منه، ثم توقف فوق رأسه. جاثوم على صدره جعله يتنفس بصعوبة..

فتح عينيه ببطء، شاعرا بأن جفونه تحمل أثقالا من حديد.. في البداية، كانت الرؤية ضبابية، لا يستطيع أن يميز جيدا ما أمامه، ثم انكشفت فجأة، ليجد زوجا من العيون غير الآدمية يحدق فيه.. عيون خالية من المشاعر والروح.. عيون ميتة، وامرأة تطفو في الهواء فوق رأسه مباشرة.

أهو كابوسه المعتاد؟.. لا.. هذا شيء آخر.. شيء مختلف.. هذه روح.. روح الدكتورة (عفت)!

سهم ناري يصيب جسده فيشعله رعبا، ويجمد الصراخ في حلقه. وجهها جامد، مرسوم بريشة فنان رعب على لوحة خوف، شعرها الأبيض يتناثر فوق رأسها بلا نظام، ويتطاير في الهواء بكل اتجاه. نظرت إليه نظرة بلا معنى، ثم ابتعدت عنه!..

حاول أن ينهض لكي يتبعها.. لم تتحرك قدماه الثقيلتان كأنهما عمودان من الخرسانة، وهو غير قادر على تحريكهما، وشيء ما يقبض على روحه بإصرار..

وقف شبحها على مدخل الغرفة، مدت يديها إلى الأمام باستقامة تشير إلى شيء ما.. ماذا تعنى إشارتها؟.. كل شيء أصبح يدور من حوله بلا نظام.. الأثاث ينبض بخفوت.. الظلال تتراقص بلا خجل. شعر بنفسه يسقط من فوق سفح جبل.. طوح بذراعيه يمينا ويسارا في الهواء وهو يصرخ في رعب، وقلبه يسقط من صدره متهاويا معه إلى اللانهاية..

أدرك انه يخرج من الحلم، وينتقل إلى حلم آخر، عالم آخر، أو..

قد لا يستيقظ ابدا

obeikan.com

(12)

لمح حركة يد سامية العشوائية، في مرآة السيارة الجانبية. لثوان ظن أن هذا خداع بصري، ففتح زجاج النافذة المجاورة له وعدل من زاوية المرآة.. الهواء البارد لامس وجهه، وقد عاد يرى الحركة غير الواضحة.. قطب حاجبيه.. إنها.. إنها يد.. يدها!

اتسعت عيناه غضبا وهو يراها تلوح في الهواء، وكأن مكواة ساخنة تلتصق بصدره، جعلته يتلوى في غيظ.. ضغط دواسة السرعة على أقصاها حتى التصقت بالأرض، لتأكل سيارته الطريق بنهم شديد.

استشعرت سامية الخطر، وأن أمرًا ما قد حدث. سرعة السيارة بدت لها مخيفة، فأدخلت يدها إلى الداخل بسرعة.

انحرف بالسيارة إلى طريق زراعي جانبي غير ممهد، طريق ضيق، كئيب.. ميت، راحت السيارة تتقافز عليه كالكرة المطاطية، بينما فروع الشجر تحف بها أو تتحطم أسفل عجلاتها، وقد جعله الغضب يتخلى عن حذره..

أدركت أنه قد علم بها، تخشى أن يحدث ما تفكر فيه.. أن يقتلهما. ضمت ابنتها بألم وهي تبكي.. لا ترغب بأن تفارقها بتلك الطريقة.. لا ترغب لابنتها بهذه النهاية..

التقطت مفكا صغيرا من أحد الجوانب، أخفته بين كفيها، كسلاح أخير لها..

العربة توقفت الآن.. موتورها أصيب بموت إرادي مفاجئ.. سمعت صوت فتح باب السيارة، ثم صوت ترجله منها.. صوات خطواته، ثم صمت مخيف لا يكسره سوى حفيف فروع الأشجار، وعيناها المذعورتان تريان جزء من قميصه يتطاير في الهواء أمام فتحة المصباح الخلفي.. شخللة مفاتيحه تشحذ كامل حواسها، ثم المفتاح يدور داخل قفل الصندوق ببطء..

تقبض على المفك باستماتة.. ضربة واحدة في مكان قاتل وسوف تقضي عليه في الحال.. القفل يصدر تكة خفيفة، ثم يفتح.. لم تنتظر رؤية وجهه.. لا تحتاج للمزيد من الانتظار.. تصرخ عاليا وهي تسدد له طعنة مباغته بالمفك:

- يا ابن الـ..

استقبلها بضربة ساطور على رأسها، بترت جملتها.. جزء من جمجمتها طار في الهواء، تلاحقه بعض الشظايا العظمية، ودماؤها تناثرت على جزء من قميصه ووجهه، ثم تهاوى الجسد بين قدميه على الأرض فارغ الروح.. ارتجفت فجأة ارتجافه عنيفة واحدة مثل الذبيحة، قبل أن تستلقي ساكنة تماما، وقد استحالت جثة هامدة فوق بركة من دماء راحت تتسع تدريجيا..

نظر إليها لبرهة من الوقت وهو يلهث، لعابه يسيل بين طرفي شدقيه.. يثيره فمها الفاغر وذهول الموت المرسوم علي عينها..

انحنى على ركبتيه بجوارها، تحسس صدرها المكتنز بأيدٍ مرتعشة، كانت ما تزال دافئة.. ساخنة.. فتح فاها عن آخره.. سال عليها جزء من لعابه.. عيناه الزائغتان تدوران في محجريهما بلا توقف وبلا هدف.

جردها تماما من ملابسها بلهفة الذئب المفترس، وتذوق لحمها بلسانه.. شهية.. طريه.. أنثى.. ضاجعها من الأمام، وعاد وضاجعها من الخلف، متلذذا في كل مرة بلعق جسدها. بعدما انتهى، تبول على الأرض، غير عالم أن تلك غريزة حيوانية لتحديد منطقة النفوذ..

أخرج مشرطا صغيرا عالج به جزء من الجثة.. دماؤها لونت يديه بالتزامن مع تمزيق لحمها.. حملها بعد ذلك، وألقاها بجوار ابنتها الفاقدة الوعي.

عاد إلى سيارته وانطلق بها غير مسرع، وهو ينظر إلى برطمان زجاجي يحمله وقد تخضبت جوانبه بالدماء.. برطمان يحوي تذكارا من ضحيته.. يحوي ثديها الأيسر!

obeikan.com

(13)

لما استيقظ خالد، كان مستلقيا على الأرض.. أخذ الأمر منه ثوان، حتى تمكن من تحريك ذراعه الخامل بفعل جحافل النمل التي كانت تنهش في داخله. رقبته ما تزال متحجرة، حركها يمينا ويسارا كاسرا الأعمدة الأسمنتية التي تحيط بها. جاءته طرقة حانية على الباب بعدها صوت سلمى كإشراقه شمس الصباح:

- الفطار يا خالد

أعلن عن استيقاظه بكلمة واحدة مقتضبة:

- حاضر

أنهى طقوس استيقاظه سريعا، ليهبط بعدها إلى الطابق السفلي، حيث المائدة تراصت عليها أطباق الطعام، بينما بخار الشاي الساخن صنع سحابة بيضاء صغيرة اختفت بسرعة.

جلس على المقعد الثاني إلى اليمين، كما اعتاد أن يجلس، وفي مواجهته سلمى تتناول إفطارها ببطء وصمت. نظر إلى يساره حيث مكان أمه الخالي.. تخيلها موجودة تبتسم له وهي تناوله قطع الجبن الرومي التي يحبها:

- خذ يا خالد... كل علشان تبقى قوي زي مازينجر

- لا.. أنا عاوز ابقي الرجل الأخضر

يتذكر ضحكتها لكلامه.. يمد يده ملامسا مكانها الفارغ، فيشعر بقبضة ثلجية تعتصر قلبه لفراقها.

نظرت إليه سلمى من أسفل عينيها صامتة. ما يزال خيالها حاضرا أمامه وهي تحدثه:

- جميل جدا اني أشوفك مرة تانيه يا حبيبي.... مش هتبطل سرمحه وتدور على بنت الحلال

يبتسم في خجل قائلا:

- هفكر في الموضوع يا ماما... هفكر في الموضوع

أمام باب الخروج، قاتل خالد لفتح عينيه في ضوء الشمس، قرص أصفر لامع يطفئ كل ما حوله من أنوار.. وضع يده أمام عينه ليحميها، قبل أن ينتبه إلى الحاج عيى، الذي وقف يرمقه بكراهية الراعي للذئاب

- صباح الخير يا أستاذ علي

رمقه بنظرة توعد، وانسحب للداخل دون أن يرد.. قناع الدبلوماسية الذي جاء به من قبل بات الآن دواسة أحذية.. من المحتمل أن يخبر (عمر). ليكن ما يكون، فليذهبا إلى الجحيم سويا في أقرب باص سريع، أو ليحترق بهما في الطريق.

اتخذ مكانه بجوار سلمى، التي أدارت مقود السيارة بحركة سريعة وانطلقت بها قائلة:

- سيبك منه

- الراجل ده مش مرتاح له... مش عارف ليه حاسس بخنقة من ناحيته

- ده راجل طيب

- اتصلتي بسامية

- لسه تليفونها مقفول... تفتكر إيه السبب

يعلم أن هناك أسبابًا عدة، لكن مشهد سامية تتحدث مع الرجل المجهول، ثم مشهد والدته المذعور، يقودان عقله لاحتمالان لا ثالث لهما.. بدا له الاحتمال الثاني هو الأكثر صوابا.. الأول أنها شريكة له... الثاني إنها ضحية له

في شارع هادئ كالموت، متخم بالأشجار، توقفت سلمى بالسيارة وهي تشير إلى منزل صغير مكون من دورين قائلة:

- ده بيتها

بدا له خاليا، لا توجد به حياة أو دلالة على أن هناك من يقطن داخله. استطردت سلمى كأنها تجاوب ظنونه:

- المنطقة هنا هادئة جدا... وتحس أن كل واحد قافل عليه بابه

هبط خالد من السيارة، واتجه نحو المنزل، تجول ببصره في نقوش الارابيسك، نوافذ مزينة بالورود ومطلية بدهانات أنيقة، تدل على أن قاطن هذا المكان شخص يهتم بالجمال، وبأدق التفاصيل. ضغط جرس الباب عدة مرات منتظرا سماع جواب، فجاوبه الصمت في كل مرة. لكن، وبعد انتظار طويل جاءه رد جديد..

صمت جديد

عاد إلى سلمى، التي استقبلته بنظرة متسائلة، رد عليها:

- البيت واضح أن مافيهوش حد

- إيه العمل دلوقت؟

- نشوف هي فين... حاولي تسالي إيمان

- خلاص... احنا نروح المركز سوا... وهناك نسألها... وبالمرة أشوف الشغل عامل إيه

- فيه مشكلة هناك ولا حاجة؟

- لا خالي والدكتور (عوض) أنا واثقة فيهم... لكن لازم أبقى موجودة... غير كدا أنا ليّ شغلي هناك

أومأ برأسه دلالة على تفهمه الأمر.. تركها تقوده إلى هناك، تاركا الديدان تأكل رأسه من الداخل.

أمام المركز الطبي توقفت سلمى.. واجهة زجاجية عملاقة براقة، يتوسطها الاسم الأشهر في المدينة (المركز الطبي العالمي). عمارة كبيرة من 8 أدوار، تم تحضيرها بالكامل لأقسام الاستقبال والطوارئ والعمليات.. الفخامة والمستوى الطبي المتقدم هو العنوان الأبرز.. بناء عظيم تمتلكه الآن سلمى بالمشاطرة مع خالها

استقبلتهم نظرات الأطباء والعاملين تمسحه مسحا، الكثير هنا لا يعرفونه ولا يعرفون ماهيته.. بعد قليل يبدأ الهمز واللمز، قبل أن تنتقل حكايته مثل الأسطورة، من آخر إلى آخر، لينتهي كل ذلك في كتاب ألف ليلة وليلة الحديث.

شجعته سلمى بابتسامة صغيرة وهما يتوجهان مباشرة إلى مكتبها. استقبلتهم هناك امرأة كبيرة السن، لا تزال محتفظة بمسحة جمال ترممه مساحيق التجميل، اسمها (إنجي)؛ اسم غير مناسب لسنها الآن، لكنه منذ 50 عام كان أكثر من مناسب.. السكرتيرة الأولى للمركز، إدارية مخضرمة، وأهل للثقة من الجميع

- أهلا دكتورة سلمى.... المركز موحشكيش ولا إيه؟

- واحشني والله... بس انتى عارفة اللي حصل

- الحمد لله

يدلف الثلاثة إلى المكتب وخالد يهمس لسلمى:

- انتي دكتورة ولا إيه؟

ترد علية وهي تبتسم في خفوت:

- كل واحد هنا في المركز بيتقاله يا دكتور... ماتحطش في دماغك

جلست على مكتبها الكبير، ثم تبادلت مع (إنجي) بعض الحديث عن أحوال العمل، حتى انتهى الجزء الرسمي والتقليدي، وغادرت هذه

الأخيرة المكتب، دون أن تنسى أن تودع خالد بنظرة اشمئزاز، اعتاد عليها في الآونة الأخيرة، ثم نهضت سلمى من مكتبها قائلة بلهجة عملية:

- طيب أنا هاخد جولة أشوف الأحوال عاملة إيه.... وبعدين هاعدي على إيمان اسألها

أومأ برأسه، وتركها تغلق الباب عليه..

دار بعينيه في أرجاء المكان، متفقدا الجدران وما تحويه من شهادات تقدير في حق المركز.. مكتبة علمية ضخمة تزين منتصف الجدار المواجه لمكتب سلمى، وقف أمامها يقرا العناوين مندهشا من حجم المراجع والكتب. كيف يعقل لشخص أن يقرا كل هذه التعقيدات الطبية والعلمية؟.. انتبه لطرقة خفيفة على الباب، ثم دخل آخر شخص يتمنى أن يراه.

كما يقال، أفضل الحروب هي الحروب التي لا تقع، كذلك أفضل المحادثات مع المهندس (عمر) هي التي لا تحدث.

جلس في مواجهة خالد قائلا:

- ازيك يا خالد... أخبارك إيه

- تمام يا باشمهندس... في نعمة والحمد لله

- تستاهل الحمد... قاعد فين دلوقتى؟

أدرك خالد انه أخطا الظن في (علي)، هذا السؤال يدل على انه لم يخبره بشيء. لكنه ما يزال شخصا سمجا بالرغم من ذلك، فضل ألا يبدأ معركة كلامية غير مجدية، فرد على سؤاله كاذبا:

- في فندق (الكرامة)

- طيب تمام... احكِ لي إيه الجديد عنك

- مفيش جديد... كام يوم كده وناوي ارجع تاني

- أحسن برضه.... مافيش داعي تعطل نفسك اكتر من كده

عصر خالد على نفسه ليمونة، ولعنه في سره سبعين مرة وهو يقول:

- كلامك مظبوط

تبادلا بعد ذلك بعض الحديث التقليدي الخالي من المشاعر، ليقول عمر بعدها الجملة التي أثلجت قلب خالد:

- طيب اسيبك دلوقتى... مسافر استلم أجهزة المركز الجديدة

- كان الله في العون.... تروح وتيجى بالسلامة

تابعه وهو يغادر المكتب.. جلس بعد ذلك نصف ساعة مملة، قبل أن تدخل سلمى وبجوارها الدكتور (عوض)، المدير. كان رجلا ضخم الجثة، في العقد الرابع من العمر، أكل الزمن كل شعره، وترك رأسه صفحة خاوية، يمتلك وجها أقرب للوجوه البلاستيكية، نموذج للطبيب الخالي من المشاعر، بالنسبة له الطب، تجارة، صنعه،

وشطارة. صافح خالد بقبضه قوية، وبابتسامة صغيرة خالية من الود كشفت عن زوج من الأسنان الأمامية المكسورة، قائلا ببرود إنجليزي:

- ازيك يا أستاذ خالد... أنا لما عرفت انك موجود قلت لازم اجي أشوفك

يبدو عليه أنه لا يعني ما يقول، وإنما هو مخاطب ود صاحبة المكان، (سلمى)

استقبل خالد كلامه ببرود مماثل:

- تمام يا دكتور... وأنت إيه أخبارك

- كله تمام... إيه مش ناوي تيجي تقف معانا... أحنا محتاجين واحد شباب وثقة زيك

- أنا بتاع تصوير... هشتغل إيه في مركز طبي؟

- عندك الإدارة... المحاسبة... بس انوي أنت بس

- ربنا يسهل

رماه بابتسامه باردة قائلا:

- ماشي ابقي خلينا نشوفك

ثم صافحه وغادر المكان، منهيا العرض الأكثر مللا على الإطلاق، فالتفت خالد إلى سلمى سائلا بلهفة:

- وصلتم لها

- إيمان ماتعرفش عنها حاجه

- طيب ماحاولتش تتصل بأبوها أو أمها

- أنت بتقول فيها... إيمان ماسابتش حد ممكن تكون عنده إلا وكلمته... أنا سايباها والقلق بياكلها... احتمال تروح القسم و تاخد أمها يعملوا محضر... تفتكر ممكن تكون أتخطفت

فكر للحظات قبل أن يجيب:

- كل شيء وارد... ولو هي فعلا اختفت... احتمال كبير تكون اتقتلت... واضح أن القاتل بيحاول انه يقطع كل الخيوط اللي ممكن توصل ليه

أصاب كلامه الخوف في قلبها فقالت بتوتر:

- نروح نبلغ.... والبوليس يتصرف

تذكر آخر زيارة له لقسم شرطة، ثم تخيل كيف سيكون رد فعلهم على البلاغ وقال:

- مش هينفع... الشرطة حاليا مكسورة.... وداخله في دور عند مع الشعب

كان هذا أحد الأسباب، لكنه ليس السبب الرئيسي لرفضه.. حاليا يخشى أن يعرف القاتل ما توصلا إليه، فيستهدفهما عندئذ. شخص مثله لن يتورع عن ارتكاب الفظائع حتى يحافظ على سر وجوده. نظر إلى ثباتها.. يعلم أن خلف هذا الوجه الواثق طفلة صغيرة، خائفة.

(14)

- شد يا باشا... شد

قالها (المنص) وهو يجلس أسفل قدمي (فؤاد) الحافيتين، واضعا النار على حجر الحشيش. أنفاسه تقرقر الماء داخل الجوزة جاعلة اللهب يشتعل في الفحم. سُحُب الدخان الأزرق تتطاير مكونة شبورة مصاحبة لابتسامة فؤاد، مع نشوة الدماغ العالية. غمغم وهو يغمض إحدى عينيه:

- قشطه

- حبيبي يا باشا

تناول فؤاد حبة لوز، ألقاها في فمه، وهو يتكئ في مكانه، كاشفا عن ساق مشعرة، مقززة..

- آه يا منص هي دى الدماغ... يخرب بيت ام القسم على اللي فيه

ثم تذكر أمرا فاستطرد قائلا:

- أنا سامع انك موسع نشاطك اليومين دول... خف... ماتزودهاش

ضحك (المنص) فظهرت أسنانه الصفراء المنخورة بفعل السوس، بينما وجهه على وشك أن يختفي وراء الدخان المتطاير

- وماله يا باشا.... الناس طالبه، والسوق اليومين دول مكشوف... وأبو عشرة بيتباع بميه

- برضه خف شوية... أنا مش عاوز وجع دماغ... مش عاوز ريحتك توصل لبعيد

- يا باشا أنت ضهرنا... واللي ليه ضهر في البلد دى، ماينضربش على قفاه... وبعدين على ايدك، كل شوية بوقع لك شوية عيال هفا من الغرزة... تلبس لهم القضايا المركونه

ثم مد يده من جيبه واضعا رزمة مالية كبيرة من فئة المائتين جنيه أمام فؤاد مستطردا:

- فضل خيرك يا باشا

- كام دول يا منص

- عشرينايه يا باشا

ربت فؤاد على رأسه، مثلما يربت على كلبه الأليف، ثم رشف رشفة قهوة بصوت مرتفع، وانتظر ثوان حتى استقرت في معدته وقال:

- اومال فين البت (سماح)... اوعى تكون نسيت... نهار أبوك اسود

- جاية في الطريق يا باشا.... تعبت قوي معاها... بس نخت في الآخر

- تعبتك ليه... أنت ماقلتهاش إن أنا اللي عاوز اطلع؟

أطلق المنص ضحكه عالية تشبيه قذيفة مدفع هاون قائلا:

- ماتحطش في بالك يا باشا

مد يده في جيب قميصه العلوي مخرجا حبة حمراء اللون مستطردا:

- الحبايه الحمراء دى كادو منى

خطفها فؤاد وتفحصها بعناية متسائلا:

- جامدة زي المرة اللي فاتت

- جامدة قوي

اعتدل فؤاد في جلسته، ثم نفخ نفسا في الهواء قائلا بجدية:

- بص يا منص... الواد وكيل النيابة الجديد... (احمد)... شايف نفسه حبتين وعامل لي شوية صراصير في دماغي

التقط منص الكلام بلهفة كلب جائع يجري خلف عظمة ألقاها له سيده:

- نفعصه يا باشا

- لا أنا عاوز قرصة ودن صغيرة... ظرفين... تلاتة... ينضربوا قدام النيابة في الهواء... يخاف... يتصل بيا عشان اخصص له حماية من عندي... يعرف بعدها أن الله حق

- اعتبره حصل يا باشا

- عاوز الموضوع يخلص زي المسطرة... مش عاوز غلطة... والنعمة لو وقعت لنفخك

- عيب يا باشا... أحنا مدارسيه ولا إيه

جرس الباب يدق قاطعا حديثهم، فيبتسم المنص وهو يغمز بإحدى عينيه قائلا:

- الظاهر (سماح)

هرع يفتح الباب، لتظهر خلفه قطعة المهلبية، البيضاء من فئة الصواريخ عابرة القارات، فرس جامحة تحتاج إلى خيال يجيد الركوب. ضحكت ضحكة خليعة وهي تلج إلى الداخل، فنظر إليها المنص بأعين جائعة، لاعقا شفتيه بلسانه

- قشطه

ابتلع ريقه بصعوبة وهو ينظر إلى الكنز الوطني الذي تحمله في مؤخرتها السمينة ذات المنحنيات القاسية. لم تعبأ به، وإنما استمرت بالاقتراب من فؤاد، وهي تهز كل قطعة لحم طرية في جسدها.

جلست على ساق فؤاد، واضعه كلتا يديها حول كتفيه قائله بدلال:

- بااااااشا

أنفاسها الحارة المخلوطة برائحة لبان النعناع تدغدغ مشاعره.. تحسسها بشوق، أصابع يده تتفحص بضاعتها الجيدة، تتخطى كل حواجزها وتعبر إلى عوالمها الداخلية، قال بعدم صبر:

- سلام أنت يا منص

فتح المنص الباب وهو يلقى نظره أخيرة عليهما، ويبتسم ابتسامة لئيمة وهو يرى يد فؤاد تعتصر إحدى حبات فواكه سماح..

- أمرك يا باشا

(15)

هل تؤمن بالسحر؟ هل سبق لك مشاهدة ساحر؟..

أنا لا أقصد السحرة أصحاب خفة اليد، أنا أقصد السحرة، السحرة الحقيقيين، تلامذة سحرة فرعون، عبدة الجن والشياطين

هناك.. على أطراف المدينة، في منزل ضخم منعزل بلا جيران، موجود.. مسخر الجن.. صانع السحر. يقولون إن عروقه لا تجري فيها دماؤنا البشرية، بل نيران من صنع الجن.. الشيخ (عظيمة)، كان هذا هو اسمه.

لا أحد يعرف من أين جاء. بعض الإشاعات تقول إنه سوداني الأصل من قرية تدعى (ناوآ) وهي المكان الذي انتشرت فيه أسطورة قديمة تتحدث عن وجود سحرة (أو سحاحير بحسب اللهجة السودانية) يأكلون لحم البشر كجزء من طقوسهم، وأن أصوله ترجع إلى السحرة الذين استدعاهم فرعون، مستعينا بهم لمواجهة سيدنا موسى عليه السلام في يوم الزينة. أطلق عليه اسم عظيمة لعظمة سحره وجبروته، ولا يوجد من يجرؤ على السكن بجواره..

اعتاد الأهالي أن يشاهدوه وهو يجعل الحجارة تطير في الهواء.. البعض يقسم أنه شاهده وهو يسير على الماء. لم يجرؤ أحد يوما على تحديه، بل الكل يتقرب له بالولائم والهدايا خوفا من إيذائه. في الوقع -وهذا هو شيء الغريب- لم يعمد لإيذاء أحد في يوم من الأيام. كان قادرا على الاحتفاظ بحب الأهالي وخوفهم في نفس الوقت

قريبا من منزله الذي يحيط به صمت غريب، توقفت سيارة صغيرة مليئة بالأرانب و الدباديب.. هبطت سلمى بتوتر وهي ترتدي نظارة سوداء ضخمة، تكاد تخفى نصف وجهها، تحمل كيسا بلاستيكيا أسود اللون يحوي شيئا ما، بدا مهما لها.. تلفتت حول نفسها يمينا ويسارا، في إحساس طبيعي بالخوف من أن يراها أحد المارين. تحركت ناحية الباب، ثم ضغطت الجرس عالمة بمكانه قبل أن تراه.. هذه تصرفات امرأة، قد زارت المكان أكثر من مرة! الباب يفتح، صرير مزعج يأتي من مفصلاته، كمشهد متكرر من فيلم رعب قديم.. لا أحد يقف وراءه..

تعبر إلى الصالة مسترشدة بنور مصباح صغير معلق بالسقف.. تسمع صوت الباب يغلق خلفها.. وصوت عظيمة يأتيها من بعيد غليظا ذا صدى رنان غريب:

- ادخلي يا سلمى

ضمت حقيبتها إلى صدرها وتحركت ببطء. لم تكن خائفة، إنها فقط حذرة..

تأملت اللوحات الغريبة المعلقة على الجدران، كانت لرجال عراه، ونساء قبيحات ضخام الصدور، يحترقون في نيران حمراء مخيفة.. بدت لها النار حقيقة، والرسمات أقرب لأشخاص حقيقيين يستنجدون بها. رائحة البخور العبقة تملأ أنفها وتشعرها بالرغبة في النوم. شعرت أن الظلال تتحرك من حولها، تعرف أنه يعيش بمفرده، لا يوجد خادم أو معاون له. شخص مثله بلا احتياج لخدمات مخلوق بشري، يمتلك من يمكنه أن يخدمه، يمتلك الجن.

حول طاولة صغيرة مليئة بالشموع الكبيرة، كان يجلس رجل ضخم الجثة، شعر رأسه يصل حتى كتفيه، بينما قنطار من القطن الأبيض يكسو ذقنه.. تعاريج وجهه كثيرة وعميقة، أشبه ما تكون بضربات خناجر، جاحظ العينين، حتىإانك لتظن أنهم سوف يتركان مكانهما ويرحلان إلى مدينة أخرى. اتخذت سلمى كرسيا في مواجهته، غير منتظرة أن يأذن لها، فابتسم كاشفا أسنانا منخورة، قائلا بتروي:

- ازيك يا سلمى.... جبتي المطلوب

مدت له يدها بالكيس الأسود قائلة بخنوع:

- اتفضل يا مولانا

مهندسة كمبيوتر تؤمن بالخرافات! لما لا.. هناك مهندسون وأطباء يعبدون البقر.. كل إنسان داخله همجي بدائي، فقط يحتاج لبعض الظروف والملابسات لكي يظهر للعلن. بالطبع ليس بطريقة معقده مثل الدكتور جيكل ومستر هايد، لكن بطريقة أبسط يساهم المجتمع في صنعها بنحو أو آخر

فتح عظيمة الكيس، ثم فرد ما به أمام وجهه، ناظرا إلى محتواه بإمعان شديد.. فستان وردى اللون، مشقوق من ظهره، ملطخ ببقع دماء جفت آثارها فاستحالت إلى اللون البني

- ده الفستان التي كانت لابساه يوم الحادثة... مضبوط؟

أومأت برأسها ناظرة إلى ما يفعل.. وضع الفستان أمامه على طاولة صغيرة، بالقرب من مبخرة كبيرة على هيئة طاسة واسعة، تتصاعد منها أعمدة الدخان. أغمض عينيه ومد يده إلى الإمام متمتا بعبارات غير مفهومة..

- بحق دهلود شاهلود خالوج... أجيبوا يا خدام هذه الأسماء... بحقها عليكم وطاعتها لديكم... أقسمت عليكم بحق رأسكم عزازير... أقسمت عليكم بحق ناصرو... احضروا.

المكان بدأ يزداد بروده على نحو تدريجي، بعض قطع الأثاث تحركت، صوت أناس يتحركون حول سلمى، لكن لا تراهم. جسدها يرتعش، بخار ماء أبيض يخرج من فمها ببطء.. ضمت حقيبتها إلى صدرها في حركة غريزية لا إرادية.. الفستان ارتفع أمام عينيها في الهواء.. ارتفع.. يأخذ شكل استدارة الجسد تدريجيا.. تنامي شعور لدى سلمى أن هناك قوة خفية ترتديه الآن.

بقع الدماء تحركت فوق الفستان، لتتركز كلها في نقطة واحدة، في منتصفه، عظيمة أكمل طلاسمه والألم يرتسم على وجهه.. رفع يده إلى أعلى، فسار الفستان في الهواء..

الشموع تنطفئ شعلتها واحدة تلو الأخرى..

الأثاث يرتجف..

- لاااااااااااا

صرخة عالية انطلقت في المكان فجأة، تهاوى على أثرها عظيمة أرضا فاقد الوعي، وقد انقلبت عيناه إلى الخلف.. الفستان يتهاوى بجواره على الأرض.. سلمى لا تنبس ببنت شفة وهي تتابع ما يحدث مرتجفة.. مازال عظيمة ينتفض على الأرض، فبات أشبه بمريض الصرع، نادت عليه بصوت ظل محبوسا داخل حلقها:

- شيخ عظيمة..

فتح عينيه بصعوبة، وهو يتنفس بصعوبة تاركا أنهار العراق تسيل على وجنتيه لتبلل ذقنه:

- خير يا شيخنا

عاونته على النهوض من سقطته وإجلاسه في مكانه. نظر إليها شاعرا بخوف حقيقي. تناول زجاجة ماء قريبة منه ونهر ما فيها في جوفه، قبل أن يقول بصوت مبحوح:

- بصى يا بنتي... الفستان ده مدقوق عليه طلسم، وله خدام من الجن الأحمر موكلين بحمايته

تناقلت سلمى النظرات بينه وبين الفستان ثم غمغمت:

- والعمل يا شيخنا؟

-لازم نفك الطلسم المدقوق عليه الأول

- شوف أيه المطلوب وأنا تحت آمرك

- محتاج زئبق أحمر عشان افتح مزاد للجن

أَومأت برأسها مدركة ماذا يعني بقوله هذا، قبل أن تقول وهي تخرج مبلغا ماليا كبيرا من حقيبتها وتضعه أمامه:

- دول كفاية؟

- مافيش فرق بنا يا بنتي... ربنا بس ينجينا من الشر اللي على الفستان

obeikan.com

(16)

أشياء كثيرة يدركها المرء حينما يكون الوقت قد فات..

المنص أمسك بأكبر أخطائه بين يده، حقنة (مكس) أغمدها في عنقه مغمضا عينيه بانتشاء المدمن، فجرى السائل في دمائه، مجددا استكانة روحه ونفسه وضميره. هز رأسه شاعرا بامتلاكه العالم، كل الأشياء تبدو الآن سهلة وبسيطة. وقف أسفل مبنى محكمة بؤر فؤاد، في ركن منزوٍ بعيد عن الأنظار، يتيح له رؤية الداخل والخارج.. ويتحسس (المقروطة) ذات الروحين المخفية وراء ظهره، أسفل جاكت جلدي يرتديه.

المقروطة، لمن لا يعرفها، هي سلاح ناري محلي الصنع، أصغر قليلا من فرد الخرطوش يتم إدخال بعض التعديلات عليها لتصبح بـ«روحين»، بما يعني ضرب طلقتي خرطوش في وقت واحد.

الانتظار.. يكره الانتظار.. ماذا فعل فؤاد؟.. هل ضاجع سماح كما ينبغي وجعلها تتأوه حتى اهتزت قواعد الفراش الأربع؟.. بعض من عسلها سيكون رائعا الآن، يوما ما ستنال شرف أن تكون إحدى جواري ذكورته.

بعض العابرين يلاحظون وقوفه المريب، وعيناه النصف مغلقة، وجلوسه المتحفز على دراجته النارية، بالإضافة إلى بقايا جرح قديم يزين جانب وجهه الأيمن، مشهد لا يبشر بالخير أبدا.. رسالة تحذير بعدم التدخل والاكتفاء بالابتعاد عنه، يلقيها في وجهه كل من ينظر

إليه، عن طريق ابتسامة صفراء بلا معنى، بينما يستمر في النظر إلى أصحاب الياقات البيضاء والبدل النظيفة الذين يدخلون المبنى بكل هيبة..

حقد الطبقية وإدراكه لحقه المهضوم يشعلان الغضب في صدره. ليسوا بأفضل منه، فقط هو ولد لأناس فقراء ألقوه إلى الشارع حيث كل شيء سيئ مباح، أما هم فقد نالوا حظهم في الدنيا، بفعل الطبقية وغياب كل العدالة الاجتماعية، في بلد يكرهه ويكره كل ما يتحرك داخله. كان انفعاليا، شرس الغريزة، اليوم الذي قامت فيه الثورة هو يوم ولادته، يوم تساقطت الأقنعة.. شعوره بأنهم مثله وليسوا أفضل منه كان شعورا لا ينسى.

نظر إلى الشباك الخاص بمكتب (أحمد).. صيده الثمين يقبع بالداخل بجوار التكييف البارد، غير عابئ به. من المحتمل أن يكون رجلا جيدا، أفضل ربما من فؤاد، لكن كما يقال، الأبيض في الكلاب نجس.

حركة غير واضحة على الشباك تعلن أن الوقت قد حان، فيضع نظارة سوداء على عينيه، يخبئ وجهه بكوفية سوداء.. شبورة دخان مختلطة الألوان تتصاعد من فتحة عادم دراجته النارية وهو يتخذ استعداده، ثم ينطلق بها. حين أصبح على مسافة قريبة من الشباك، أخرج المقروطة من وراء ظهره.. شد الأجزاء بحذر.. صوبها نحو الواقف في الشباك.. ضغط الزناد محررا الخرطوش من محبسه و..

وأصاب هدفه!

...

رشف أحمد رشفة قهوة وهو يقرأ أحد القضايا باهتمام شديد..

تحسر من كمية البلاغات المؤجلة، والتي تركها له زميله السابق، إرثا مرهق يحتاج إلى عمل مضاعف. عدم الاستسلام لواقع فاسد يجعله مصمما على إكمال مهمته.. ربما ينجح وقد يفشل، لكنه في كل الأحوال لن يكون حزينا...

أغلق الملف محركا جلد جبهته بأصابعه محاولا تنشيط الدورة الدموية لمخه.. رنين هاتفه شكل له إزعاجا وقتيا، لكن بالنظر إلى اسم المتصل ارتاحت أعصابه، وضغط على رد المكالمة قائلا:

- السلام عليكم

الصوت الأجمل والأحب يأتي رقراقا شفافا:

- ازيك يا حبيب ماما... عامل إيه

- الحمد لله... إخبارك ايه يا ست الكل

- أنا كويسة... المهم أنت صحتك عامله إيه... بتاكل كويس؟

- بأكل كويس قوي وزي الفل

- عليَّ أنا الكلام ده... أنت صوتك تعبان كدا ليه؟

- لا... انتى بيتهئلك

- خف شوية من شرب القهوة

- قهوة إيه... أنا بطلت اشربها ومابشربش دلوقتى غير ينسون وحلبة حصى... زي ما أنت قلتِ

- ربنا يخليك ليّ يا حبيب ماما... بس كل كويس

- والله بأكل كويس

- طيب هتنزل أجازة امتى؟

- قريب ان شاء الله.... بس اخلص كام قضية وابقي آجي

- والناس اللي معاك في الشغل.... عاملين إيه؟

- تمام.... ناس محترمة قوي وقمة الالتزام والأمانة

- طيب... الحمد لله

- ده بفضل دعواتك

وضع الهاتف جانبا، بعدما أنهى المكالمة ببعض السلامات إلى المعارف والأقارب، ودعاء طويل قرأته له أمه ليحفظه من كل شر.

هواء التكييف الذي على وشك أن يصاب بصدمة قلبية جعله يشعر بدوار وباحتياج إلى مصدر هواء طبيعي.. إحساس حقيقي بالنسيم، وبدرجة الحرارة الطبيعية.

أغلق التكييف متمنيا له إغفاءة سعيدة، ثم توجه إلى الشباك المجاور لمكتبه، وفتحه بهدوء، لتستقبله نسمة هواء محملة برائحة يود خفيفة قادمة من البحر.. الشارع كان شبه فارغ من المارة، فأخذ يتابع حركة المارين بعدم اهتمام.

ما بال موتوسيكل يتوقف أسفل شباكه، لم يعره اهتماما، ربما لو دقق النظر قليلا، لأدرك أن صاحبه ملثم.. لأدرك أيضا أن هناك مقروطة في يده، وأنها تصوب نحوه، قبل أن يصدر صوت مزعج يتردد مرتين، مع حفنة من الشظايا القاتلة تنطلق نحوه و..

وانتهى الأمر سريعا

...

عندما تفقد شيئا ما إلى الأبد، بعدها لن تعود في حاجة إليه، ولن تشكو من فقدانه مجددا. على سبيل المثال، الأشخاص الذين يعيشون بلا كهرباء، لا يشكون مطلقا من انقطاعها. لكن.. هل الميت يشكو من فقدانه الحياة؟!

عندما فتح أحمد عينيه، طالعه ملاك ينظر إليه ببراءة.. وجه كالقمر حجب عنه رؤية كل ما حوله، صورة مجسمة للرقة والجمال تقف على قدمين. افتقد هذا الجمال وهذه البراءة، هذا العطر المحبب للنفس.. عطر الطفولة الذي يشع منها جعل قلبه يخفق..

يخفق بقوة..

تساءل: هل هذا هو الموت حقا؟..

مجال الرؤية يتسع أمامه تدريجيا، ليجد نفسه على سرير طبي متصل ببعض أجهزة قياس النبض وإلاشارات الحيوية، يحيط به طبيب وممرضتان، بالإضافة إلى الفتاة الجميلة ذات الوجه الملائكي الواقفة أمامه.

ابتسم الطبيب وهو يتفقده:

- حمد لله على السلامة يا أحمد بيه

قال أحمد وهو مازال ينظر إلى الفتاة مأخوذا:

- إيه اللي حصل؟

- واحد بلطجي ضرب عليك ظرف من مقروطه... رشة جت في دماغك واستقرت بفروه الرأس... لكن الحمد لله استخرجناها وتقدر تخرج حالا... مفيش أي خطورة عليك

تحسس الشاش الذي يحيط رأسه قائلا وهو يشير إلى الفتاة:

- مين الملاك اللي هناك دى؟

اتسعت عين الطبيب مندهشا عندما سمع ذلك، بينما تحدثت هي مبتسمة:

- أنا سلمى... مديرة المستشفى

مد إليها يده ليصافحها برقة قائلا:

- وأنا أحمد... فرصة سعيدة قوي

تبادلت الممرضات نظرات ذات مغزى، ورحن يضحكن بصوت مكتوم، بينما تضرج وجه سلمى بحمرة الخجل، وهي تمد يدها قائلة بابتسامة عذبة:

- أنا اللي أسعد

- بجد..

قالها وهو يقلب يدها ناظرا إلى أصابعها ليطمئن قلبه، وجدها خالية من أي ارتباطات حالية أو مستقبلية.. استرخى في فراشه وقد أثلج صدره، شاعرا ناحيتها بشعور جميل..

شعور الحب من النظرة الأولى.

...

obeikan.com

(17)

- نهار أبوه اسود ابن الكلب ده

ضرب (فؤاد) بكفيه على مكتبه صارخا بتلك العبارة في غضب، مما جعل عروق رقبته تنفر ووجهه يشتعل نارا حمراء.. الشرر الذي يتطاير من عينيه كان كافيا لفضح تورطه.

مصير أسود ينتظر المنص على يده.. أمره ألا يخطئ، فإذا به لم يخطئ فقط بل ارتكب مصيبتين.. أولهما انه أصاب أحمد، وهذا كفيل بجعل مهمة القبض عليه هي الهدف الأول للداخلية. والثاني أن هناك من شاهد شخصه وتم الإبلاغ عنه بالفعل، أي أن هناك جريمة وجانٍ معروفا..

الآن لا يمكنه إغماض عينه عن أن المنص ورقة محروقة، والتضحية به أمر واجب. أمثاله بلا يشعرون بما يشعر به من أزمة تورط فيها، فحياتهم في أصلها ورطة قذرة. ضغط أرقام الاتصال الخاصة بالمنص، يحفظها عن ظهر قلب، لا يقوم بتسجيل رقمه على الهاتف تحسبا للظروف، صوت المنص يأتيه نائما من الطرف الآخر:

- باشا... إيه رأيك

- مية مية... جهز لنا قعده حلوة كدا علشان نحتفل

- تحت أمرك يا كبيرنا... أنت تؤمر

أغلق فؤاد الخط وهو يزفر بضيق.. حزين هو، ليس على المنص، هناك بالتأكيد من سيحل مكانه، فالصفوف الخلفية للحثالة أكثر من ممتلئة. إنه حزين على سماح، قطعة المهلبية التي لا يستطيع جلبها غير المنص..

حقا.. إنه ابن كلب

...

تأخرت سلمى عما كان يتوقع، أخبرته أنها ستذهب لمشوار خاص بها، لن يستغرق سوى نصف ساعة، ثم ستمر على المركز سريعا وتعود..

لم يكن يعرف أنها قد مرت على الشيخ عظيمة. اخفت عنه ذلك، لعلمها بأنه سيرفض الفكرة من أساسها.. لم يكن يعرف أيضا أنها تجلس الآن مع (أحمد) في أحد الكافيهات القريبة من المركز الطبي، غير مدركة لمرور الوقت، أو ربما تدركه لكنها تتعمد نسيانه. يطارده هاجس مجنون أن تكون قد تعرضت لضرر ما.. اتصل بالمركز حيث اخبروه أنها خرجت منذ ساعتين، وهاتفها غير المتاح سبب له توترا إضافيا..

غسل أفكاره ووجهه في حوض الحمام، ثم ارتدى ملابسه استعداد للخروج بحثا عنها. في الطرقة، أوقفه باب غرفة (عفت).. بابها الذي لم يفتح منذ أن ماتت كان مواربا! ظلام دامس يظهر من ورائه، يحمل دعوة مباشرة بالدخول.. تذكر الحلم، وإشارتها نحو الباب.. مد يده نحوه و..

ودخل

...

ضغط مفتاح الإنارة، ليضرب ضوؤه الجدران القرمزية اللون، فيسكب نبيذها على كل شيء بالغرفة. كانت رائحة الغرفة زكية نفاذة، كل شيء كما هو يتذكره، دولابها البني الغامق، سريرها ذو النقوش النصف دائرية.. برواز كبير يضم صورته إلى جانب سلمى، بجانب عروسة كبيرة ذات فستان من التل الأحمر المنقوش، شرائط لفرقة (Boney M) بجوار كاسيت عتيق الطراز.. فستان جميل موضوع على السرير، يبدو أنها كانت تفكر بارتدائه يوم الحادثة، ثم اختارت غيره ونسيت أن تضعه مكانه..

فكر.. هل نسيت أم كانت متعجلة؟ هاتفها كامن بجوار الفستان كصديق وفي نائم بلا حراك، وقد نسته أيضا.. ضغط زر تشغيله، فلم يستجب، البطارية تحتاج إلى شحنة كهرباء لإعادة الحياة إليه.

كيف فاته أمر هاتفها في خضم ما حدث؟ هناك احتمال كبير أن تكشف آخر مكالمة قامت بها الغموض الذي يكتنف ساعاتها الأخيرة. بحث عن شاحنه، ثم أوصله بالكهرباء لتغذيه.. كان هاتف حديث الطراز، أنيق جدا، يعكس ذوقها العالي. ضغط زر تشغيله، فأطلق نغمة استيقاظه الشهيرة الخاصة بشركة سامسونج، وأضيئت شاشته لتظهر القوائم الشهيرة الخاصة بالأندرويد

فتح قوائم استقبال إرسال المكالمات، التي ضمت طابورا طويلا من الأسماء، آخر اثنين فقط من نالا اهتمامه..

قبل الأخير كان سلمى، وقد أخبرته بمحتوى تلك المكالمة. أما الاسم الأخير، والذي كان بعد مكالمة سلمى بنصف ساعة كاملة، مما يعنى أن المكالمة حدثت قبل أو بعد وصولها للفرح بدقائق، فقد كان مألوفا..

مألوفا جدا..

الدكتور (عوض)!

...

- مستعجلة على إيه.. لسه بدري

قالها (أحمد) باستنكار وهو يبتسم إلى (سلمى) بعذوبة

نهضت من مقعدها معلنة انتهاء جلستهما، قالت وهي ترسم على وجهها ابتسامه ساحرة:

- معلش... تلاقى خالد دلوقت هيموت من القلق... أنا عارفة دماغه

يسير بجوارها غير عابئ بنظرات الناس إلى رأسه الملفوفة بالضمادات. ضحكت ضحكه خافتة حاولت كتمانها، سألها بمرح:

- بتضحكي على إيه

- أصل شكلك بالشاش فظيع... الكل عمال يبص عليك

نظر إليها نظرة ذات مغزى قائلا:

- يارتني اتعورت من زمان... لو كان ده تمن اني أتعرف عليكِ

نظراته إليها أربكتها، قالت:

- بعد الشر عليك

كأنثى قرأت في ملامحه وعينيه الكثير.. قرأت إعجابه... مشاعره تجاهها.. أدركت انه يحمل بين ثنايا قلبه أحاسيس بيضاء. بدا لها حالما كفارس من فرسان الحب.. فأمسى قلباهما يختلجان في وقت واحد.. في أوان واحد. فتح لها باب سيارته قائلا:

- اتفضلي... هوصلك

رمقته للحظات لتبتلع كامل ملامحه في عينيها، قبل أن تعلو شفتيها ابتسامة قائلة:

- أنا معايا عربيتي... هروح بها

- لا مايصحش... أنا هبعت أي حد يوصلها للبيت وانتِ تركبي معايا

تتنهد باستسلام انثوي لذيذ:

- ما دمت مصمم

طول الطريق تبادلا الكثير من الكلام لزيادة التعارف، وقلبها ينبض بزهرة حب تنمو ببطء، أما قلبه فقد تحول إلى حديقة من الزهور. كانت على وشك إخباره بموضوع والدتها، لكنها فضلت عدم الخوض في ذلك الموضوع، فلتأخذ حقها الآن لتنعم فقط بصحبة هذا الشاب الظريف، الوسيم والمحب.

(18)

عندما تنتهي الحياة لن يتبقى عليها سوى أمثال المنص، صحيح أن أمثاله قصيري الأجل، نتيجة أفعالهم، إلا أنه يستطيع النجاة، لأن متطلباته في الحياة بسيطة، حياة فقط.. وما حولها هو رفاهية مطلقة.

يعطر جو الشقة جيدا.. يعلم حب فؤاد للرائحة العطرة الذكية.. زجاجات البيرة المشبرة تنتصب كأهرامات الجيزة على ترابيزة كبيرة مذهبة.. أحجار الحشيش مرصوصة بعناية بجوار بعضها كدوائر سوداء بجانب الجوزة الشامخة في اعتزاز وكرامة.. طبق كبير من المكسرات اللذيذة يضعه بجانب زجاجات البيرة. تفقد الثلاجة بعناية، وتأكد من وجود كمية وفيرة من الطعام والفاكهة.. الأمر جيد حتى الآن.

ابتسم المنص وهو يفترش كنبة وثيرة تتوسط الصالة، وتنهد بارتياح، ثم تناول زجاجة بيرة راح يتجرع محتواها ببطء.. هذا اليوم على وشك أن يصبح مثاليا بالنسبة له.. تجارته تزدهر يوما بعد يوما بفضل فؤاد، ورصيده في البنك ينمو كعرض مستمر بلا توقف..

فجأه تحطم الباب، إثر اقتحام قوات الشرطة، فلم يبد أي مقاومة. ظل جالسا في مكانه يرفض تصديق أن فؤاد ضحى به بسهولة.. الخيانة تصيبه في قلبه كخنجر مسموم يجمد دمائه ويشل أعضائه، غير مستوعب البنادق المصوبة إليه في تحفز وصوت جهوري يصرخ فيه:

- مكانك.... مكانك

إنه لا يتحرك، فقط ينظر إليهم وهم يكبلونه بالأغلال ويسحبونه بكل سهولة.

ما جعله يتحول من الذهول إلى الغل، هو أن رأى فؤاد موجودا مع قوة الاقتحام. استقبل فؤاد نظراته، بشومة صغيرة، هوى بها على ركبة المنص وهو يسبه:

- يا ابن الكلب

صرخ المنص من الألم وهو يفقد التحكم في قدميه ويسقط أرضا:

- الرحمة يا باشا... الرحمة

لكن فؤاد استمر بضربه فوق مفصلات قدمه وأطراف يده. صوت تكسير العظام كان يصل إلى مسامع المشاركين.. الأمر كان جدا قاسيا.

الدمار الشامل أصاب الشقة إثر تفتيش محتوياتها، وتحريز الحشيش لعمل قضية ثانية له غير القضية الأولى الخاصة بالاعتداء على (أحمد).

قبل إلقائه في البوكس، همس فؤاد في أذنه بلهجة تحمل التهديد والوعيد:

- حسك عينك تجيب سيرتي... هي كلها قضية صغيرة وهتاخد لك سنة ولا سنتين... سامع وإلا ورحمة امي مااخليك بعد كده تشوف الشمس.

بصق المنص الدماء من فمه وهو يقول بخنوع:

- فاهم يا باشا... فاهم

نهاية سعيدة بالنسبة لفؤاد، وسيئة بالنسبة للمنص.. لكن الذي يعرف هذا الأخير جيدا، يعلم أنه لن يتقبل أبدا هذه النهاية، ولا يقبل أن يكون كبش فداء..

obeikan.com

(19)

نعم، الدكتور (عوض) بملامح وجهه البلاستيكي الخالي من المشاعر.. صوته يبرز في مخيلة خالد بمجرد أن قرأ اسمه بقائمة الاتصالات.. فيما تحدثا؟ فتح قائمة الاستديو، فإذا بصفعة المفاجأة تهبط على وجهه مرة أخرى. مجموعة صور لهيكل عظمي داخل صندوق خشبي قديم، لقطات مقربة لعظام الجمجمة والصدر.. تصوير مخيف، أشبه بكتاب عن الموتى، تاريخ الصور يشير إلى أنها التقطت يوم الحادثة.. هذا اليوم كان أكثر من مشحون، أحداثه غير العادية تتوالى في الظهور على السطح..

ضغط زر الزوم في الهاتف.. حاجباه ينعقدان إثر اكتشافه شيء جديد، السجادة التي تظهر في بعض اللقطات هي نفس السجادة التي يقف عليها الآن!.. هل تعلم سلمى شيئا عن هذا؟ احتمال موجود، لكنه ضعيف.

بحث داخل الغرفة عن الصندوق، شيء بهذا الحجم لا يمكن إخفاءه سوى في مكانين، الأول الدولاب، قام بتفتيشه ولم يعثر فيه على شيء.. الثاني تحت السرير. هبط جاثيا، ورفع الملاءات التي تلامس الأرض.. الصندوق يقبع أسفل السرير، ساكنا كالقبر، فحواه عظام إنسان ميت!

سحبه خالد من مكانه.. كان أثقل مما يتوقع.. القفل الضخم الأمين عليه يعلن أن الحل الوحيد لفتحه هو تحطيمه بشي ثقيل. تساءل خالد وهو يتحسس الصندوق بيده عن الداعي لأن تحتفظ بهيكل

عظمي في صندوق كهذا أسفل سريرها. إنها طبيبة، لكن الأطباء بالتأكيد لا يفعلون ذلك. أيكون هذا الصندوق وما يحويه هو السبب في موتها؟ أتكون هي من كتبت نهايتها بيدها عندما احتفظت به؟.. أسئلة لا يجد لها إجابة.

...

يد ضخمة، تتسلقها فروع من اللبلاب الأخضر، يمكن تسميتها مجازا بالعروق، تنتزع صدر فرخه محمرة، فيتناثر الزبد منها ليصيب جزء من ملابس صاحب اليد.. بعض الأسنان المتناثرة داخل فمه تطحن وتقطع اللحم بصوت مرتفع.. يتلذذ بصوت المضغ وبتناثر الزبد من حوله، تاركا بعض حبات الرز عالقة على لحيته.. الشيخ عظيمة وحش جائع، يأكل بنهم وكأنه في آخر زاده، جالسا على الأرض وأمامه صينية مرصوصة بأطباق الدجاج والأرز والخضار..

من خلفه، أقدام تتحرك بحذر، لا يشعر بها، توقفت وراء ظهره، وأعين حادة تتخللها شعيرات دموية حمراء تنظر إليه بلا ملل أو كلل، ظل صاحبهما يترقب فرصة مناسبة للانقضاض.

فتح (عظيمة) زجاجة ماء، ثم اجترع نصفها غير عابئ بالماء الذي تسقط من بين شدقيه..

- بالهنا والشفا يا شيخ عظيمة

الجملة تضربه كسوط على ظهره، تلهب أذنيه وتحرق أعصابه، فيتجمد في مكانه. لا شيء يدعو للخوف، سوى أنه يعيش بمفرده. نسي

أنه مازال يمسك بزجاجة الماء، ينسكب ما بقى منها على صدره وهو يلتفت إلى مصدر الصوت بأعين غاضبة من الخارج، خائفة من الداخل.. صاحب الصوت يقف في ركن مظلم، يخفي ملامحه بعيدا عن أنوار الشموع، مطلقا ابتسامة ساخرة لم يرها عظيمة ولكنه شعر بها:

- أنت مين؟

قالها بصوت حاول أن يبدو متماسكا، لكنه خرج رغما عنه مرتعشا، الصوت يجيبه ساخرا:

- معقول... الشيخ عظيمة اللي بيشوف الغيب... مش عارف مين اللي بيكلمه وبيننا حوالي 3 متر بس

نهض عظيمة من مكانه متراجعا إلى الخلف ببطء.

- رايح فين يا شيخنا... الباب من ناحيتي

دار عظيمة بحذر محاولا معرفة صاحب الصوت وهو يغمغم ببطء:

- عاوز منى إيه

لم يجبه، لكن تحرك إلى الأمام بضع خطوات، فبدت ملامحه واضحة للشيخ عظيمة، كشيطان يظهر في وضح النهار.. يعرف هذا الرجل، ليست أول مرة يراه فيها، كان يمسك في يده الفستان الذى أعطته إياه سلمى.. يدرك الآن غرض الرجل.. هدفه.. سكين ضخم يشهره الرجل أمام وجهه مؤكدا نظريته.. يتراجع عظيمة بحذر قائلا بخوف:

- أنا مش هتكلم

صوت الرجل يبدو مخيفا وهو يتحرك نحوه:

- أنا عارف

بيد مرتعشة وقدمين تعجزان عن حمله، أشار عليه الشيخ عظيمة قائلا:

- أنا شفتك في الحلم قبل كدا

- وحلمت كمان باللحظة دي... شفتني وأنا بقتلك

سقط عظيمة على الأرض وهو يتراجع، إثر اصطدامه بمائدة الطعام..

حاول الزحف على ظهره قائلا بصوت متقطع:

- ايوه... شفتك... أنا مارضيتش أقول لها عليك

يده تصطدم بالأطباق التي سقطت بجواره، أمسك أحدها وألقاه نحو مهاجمه، كل ما عثرت عليه يده كان يلقيه بيأس وبلا تركيز. لم يحاول الرجل المهاجم أن يتفادها. كان يتركها ترتطم بوجهه أو بصدره، غير عابئ بتأثيرها. وبكل قوته، ركل مائدة الشموع، فتطايرت في الهواء، فظهرت منها خيوط طويلة ملتصقة بقاعدتها، تلك التي كانت يستخدمها عظيمة في جعلها تنطفئ لخداع زبائنه..

ضحك الرجل عاليا وهو يهتف:

- خدعك رخيصة قوى يا شيخنا

- مش كلها... مش كلها... أنا كنت عارفك... صدقني

- مصدقك وعشان كدا أنا جيت لك

قالها الرجل، ثم قفز جاثما فوق صدر عظيمة، الذي صرخ مهددا إياه بيأس:

- الجن بتوعى مش هيسيبوك

كان الرجل ثقيل الوزن، فكاد أن يحطم عظام صدر عظيمة، الذي عاد يصرخ بعلو صوته طالبا النجدة. هوى الرجل بلكمة على وجه عظيمة هشمت انفه وجعلت رأسه ترتطم بالأرض مسببة له دوار شديد، قبل أن يبصق الدماء التي دخلت في حلقة..

ابتسم الرجل شاعرا بتمكنه من فريسته.. ابتسامته كانت شيطانية ومخيفة لدرجة أنها كانت أبشع من أي شيء آخر رآه (عظيمة) في حياته كلها.. نحى السكين جانبا، وهو يقول بتلذذ شديد:

- مافيش داعي لها... عندي طريقة أحسن

راح يعتصر عنق عظيمة، الذي نفرت شعيرات عينيه، وتشنجت رقبته في صرخة مكتومة تستجدي الهواء، حتى انفرجت شفتاه أخيرا، فقال متوسلا بصوت واهن:

- ماتموتنيش... أبوس أيدك

حاول أن يدفع الرجل من فوقه بيأس ووهن.. خوار مخيف خرج من حلقه.. عنقه الضعيف يتداعى كسنبلة قمح جافة.. لسانه تدلى خارج

فمه بطريقة بشعة.. ذراعاه يرتعشان، عيناه تجحظان، ماء اصفر يسيل من بين قدميه، تحكمه العصبي يتداعى وينهار سريعا، وروحه تنسحب من جسده وتنسلخ تدريجيًا من عظامه بدءً من قدميه، صعودًا لأعلى، مرورا بحنجرته التي تحطمت الآن. ارتعاشه أخيرة، ثم سكن جسده إلى الأبد..

انتهى.. مات.. نهض القاتل من فوقه متنهدا بارتياح شديد. نظر إلى الجثة ونظرات الرعب التي لم تفارقها.. يقاطعه صوت سيارة تقف بالقرب من المنزل يسمع هدير محركها.. أي شخص هذا القادم الآن؟.. صوت أقدامه تقترب من الباب، وكما ظهر القاتل من الظلام عاد يختفي تدريجيا في وسط الظلام.. لم يغادر، بل يتربص.

جرس الباب يدق عدة مرات، لا إجابة. الباب يفتح.. القاتل يراقب.. أخرج سكينا استعدادا، بينما عيناه تلمعان في الظلام.

- شيخ عظيمة

القاتل يعرف هذا الصوت جيدا، يعرف صاحبه، والتقى به قريبا.. اتسعت ابتسامته وهو يراه يمر من أمامه دون أن يلاحظه.. الأمور تسير في صالحه أفضل مما يتمنى.. صاحب الصوت يلتقط الفستان الملقى على الأرض بحذر وهو يتلفت من حوله.. القاتل يقترب منه ببطء من ورائه، دون أن يشعر به، مستعدا لإضافة اسم جديد في لائحة ضحاياه..

اسم (خالد)!

...

قبل ساعتين من الآن.

حمل خالد الصندوق شاعرا بما يحويه من مصيبة. مصيبة الموت وبقايا جريمة لا يعرف تفاصيلها. أمسك تمثالا صغيرا من البرونز.. خوف كوني مجهول يضربه وهو يهوي بالتمثال على القفل.. ضربة ثانية، ثم ثالثة، لينهار بعدها تماسك القفل. ألقى التمثال جانبا، وبلهفة عادت تتردد حين أوشك على فتح الغطاء، رفع الغطاء وقد حسم أمره.

رائحة كريهة استقبلته بترحاب مبالغ فيه، تلتها كومة من أوراق الجرائد المرصوصة بعناية.. مذكرة بالية الأطراف.. وأخيرا هيكل عظمي أصفر اللون، تم رص عظامه بعناية. كان يعتقد أن العظام لونها أبيض.. أحساس بالوجل يشعر به، فللموت مهابة.. ما تزال الأسنان موجودة داخل عظام الفك المفتوح عن آخره، كأن صاحبه يصرخ مستغيثا.

صاحب هذا الهيكل بالتأكيد له قصة، بدون شك هي كالتالي: ولد، عاش، مات، وما بينهما مجرد تفاصيل، اختصار بسيط لكل قصص البشر، لا اختلاف.

تناول خالد كومة القصاصات، وفضها بحرص. قرأ العناوين الموجودة بها، فقرات من جرائد مختلفة، بتواريخ متنوعة ممتدة لأكثر من عشرين عاما ماضية.. عناوين تتحدث عن اختفاء فتيات، وأخرى

تتحدث عن العثور على جثث لفتيات تم اغتصابهن ثم قتلهن والتمثيل بجثثهن، التواريخ مختلفة والأماكن متنوعة على مستوى الجمهورية..

كانت هذه الأوراق أشبه بسجل لقاتل متسلسل، يعيث في الأرض فسادا بلا رادع، ينتقي ضحاياه بعناية، ولا وجود لجريمتين له في مكان واحد. أي قاتل هذا؟ القتلة المتسلسلون يحبون الشهرة، يحبون أن تخلد أعمالهم، لا يحبون أن يبقون في الظل لفترة طويلة.. بينما هذا يميل إلى الخفاء والسرية، فيتنقل من مكان لآخر.

لكن كيف لامرأة مثل (عفت) أن تكتشف مثل هذا الشخص الخطير؟.. كيف ذلك؟ كيف استطاعت أن تربط بين كل هذه الجرائم؟ ما الرابط بينها وبين المجرم؟ هل الأمر كان صدفة أم هناك علاقة ما؟.. هل القاتل أدرك أنها قد عرفته، فتخلص منها لإخفاء جرائمه؟ اختلاف الطريقة يوحي بأنه لم يقتلها بغرض استمتاعه بالقتل، بل كانت جريمة قتلها مجرد أثر جانبي.

فتح الأجندة.. لم يكن من العسير إدراك أن الخط المنمق كان لها. صفحاتها أشبه بخواطر تدور في محيط حياتها الخالية من التعقيد.. تصفحها بسرعة، حتى وصل إلى نهايتها. على آخر صفحاتها وجد

(أ 36 - ج 44 - ب 10)

ماذا تعني هذه الأرقام وهذه الحروف؟..

التفكير يعصر عقل خالد، ويحيله إلى مزيج من أسئلة، أغمض عينيه محاولا البحث عن إجابات لها. صوت أقدام تتحرك داخل المنزل، يتبعه نداء مألوف:

- خالد، أنت موجود؟

أغلق الصندوق بسرعة محاولا إخفاءه، لكن صوت سلمى أتى من ورائه متوترا:

- ايه الصندوق ده؟ فيه أيه؟!

التفت ناحيتها مرتبكا.. هربت عيناه لكسر من الثانية، ثم أجاب:

- يكون أحسن لو سبناه مكانه

نظرت إليه بإصرار.. لحظات، ثم اتجهت إلى الصندوق لتفتحه بنفسها قائلة:

- أنت بتخبيء فيه ايه

قطع عليها الطريق بجسده قائلا وهو يحصي الشياطين التي دارت في عينيها:

- اوعديني الأول...

هزت رأسها غير فاهمة، ولم يدر ما الذي يمكنها أن تعده به، فانزاح بنفسه من أمامها، ثم فتح غطاء الصندوق..

مأخوذة من المفاجأة، تراجعت للوراء قليلا بحركة لا إرادية، في محاولة الهرب مما رأت. مطلقة صرخة عالية:

- ايه ده؟!

لثانية بدا لها الصندوق وما يحويه كجزء مشتعل من الجحيم، ثم تلاشى ذلك وخالد يجلسها على كرسي قريب. ربت على كتفيها قائلا بصوت خافت:

- خدي نفس يا سلمى... اهدي... عايزك تركزي معايا شوية

نظرت له وما تزال الصدمة تشلها من الداخل.. قص عليها اكتشافه، وما تحويه القصاصات والأجندة، وما يعتقد أنه قد حدث.. استمعت له بإمعان، ثم قالت بصوت مبحوح يعكس حالتها النفسية:

- لازم نبلغ البوليس

- مش هينفع... هندخل نفسنا في متاهات.... والجثة الموجودة دي ممكن تكون لواحدة اتقتلت ومافيش حد هيرحمنا أو حتى هيحاول يفهمنا

- طيب و الحل؟

- مفيش غير أننا نكمل بحث

رفعت وجهها نحوه قائلة بارتباك:

- أنت عارف أن أحنا ممكن نعرف القاتل بسهولة..

نظر إليها باستغراب بينما استطردت قائلة:

- الشيخ عظيمة ممكن يعرفه.... دا راجل بيسخر الجن... وبيشوف الغيب وله كرامات كثير

كادت مداركه تتوقف عن التفكير، غير مصدق لما سمعه منها. يعلم أنها من أسرة تؤمن بالسحر والدجالين.. اختبر ذلك أكثر من مرة، عندما كان يعيش معهم، لكن لم يعتقد أن سلمى تصل إلى هذا الحد من الإيمان به..

- معقول يا سلمى تكوني بتصدقي في الدجال ده!... أنا مش قادر اصدق

تدافع عن رأيها قائلة:

- أنت ناسي...لما كنا صغيرين وكنا بنشوفه بطيَّر الحجارة في الهواء... ويخليها تتخانق مع بعضها

قرأ في عينيها الإيمان بما تقول، فرد بإصرار:

- انسي فكرة السحر والدجل... ده راجل نصاب

- طيب نحاول... مش هنخسر حاجة.... أنا وديت له امبارح الفستان بتاع ماما... ووعدني انه هيشوف اللي حصل لها

كاد أن يصرخ من صدمته ضاربا كفا بكفه:

- رحمتك يا رب... وماقولتيش ليه

- كنت خايفة تعمل اللي أنت عامله دلوقت

تمالك أعصابه، ثم قال بعد لحظة:

- خد منك فلوس؟

أطرقت برأسها أرضا وهي تقول كطفلة ارتكبت خطأ أمام أستاذها:

- 10 آلاف جنيه بس

- 10 بس..

وضع الصندوق بما يحويه مكانه أسفل السرير مستطردا:

- أنا هروح له دلوقت... أجيب منه الفستان والفلوس.. ولما ارجع نبقى ندور عن معنى الأرقام المكتوبة في الأجندة

- أنا مش هعرف اقعد في البيت والصندوق ده موجود.... أنا هاجي معاك

سحبها معه خارج الغرفة، وأغلق بابها بالمفتاح، ثم عاد يلتفت إليها مستطردا، عندما رأى الإصرار في عينيها:

- لو عايزة تيجى هتخليكى في العربية وماتنزليش منها

- اتفقنا

...

قذف بنفسه في سيارتها شاعرا بالحنق.. تقودهما سلمى وسط الشوارع الممتلئة بالأضواء المبهرة. نظر غير مخدوع إلى الأضواء، مدركا مدى زيفها

وأنه يعيش أياما مظلمة. سلمى تستمر بالنظر إليه مترددة كل برهة، حتى شعر أنها تريد أن تخبره بأمر ما، لكنها تفكر أن الوقت غير مناسب..

قال وهو يلتفت نحوها:

- فيه إيه يا سلمى.. عاوزة تقولي حاجة

ترددت لحظة، ثم بدأت تحكي له ما دار بينها وبين أحمد. يتابع ملامحها وهي تتحدث، يدرك لأول مرة كم كبرت أخته الصغيرة، وأصبحت آنسة جميلة، قلبها يدق، تتحدث معه بحرج شديد. للحظة، شعرت بأنه سوف يصفعها على وجهها لكنه فقط كان يكتفي بالابتسام. تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل عندما قال:

- أنت حاسة ناحيته بحاجة حقيقية فعلا؟

أومأت برأسها، فأردف قائلا وهو ينظر إلى الأمام، منهيا الحديث في هذا الموضوع:

- المرة الجاية هبقى اجي اقعد معاكم

منزل الشيخ عظيمة يبدو واضحا في الأفق.. توقفت بالسيارة أمامه.. هبط منها وهو يكرر وصيته لها بعدم النزول خلفه.

دق الجرس، وانتظر ثوان للرد عليه، ثم دفع الباب برفق، فإذا به يتحرك من أمامه مصدرا صريرا مزعجا.. نادي بصوت عالٍ:

- شيخ عظيمة

أجابه صدى صوته عدة مرات.. شعر بانقباضة باردة في صدره.. نظر إلى سلمى نظرة أخيرة، فرأى في عينيها قلق ونداء بأن يرجع، إلا أنه أكمل طريقة ودخل.. عبر من الباب متلمسا مكان خطواته، غير مدرك لوجود قاتل في انتظاره، يختبئ وسط الظلام وعلى استعداد تام لسفك دمه.

بأعين متربصة يتابعه القاتل وهو يتحرك كضرير فقد عصاه.. يدور من حوله مستغلا أفضلية تعوُّد عينيه على ظلام المنزل. خالد يشعر بحركة من خلفه، شيء جعل شعيرات مؤخرة عنقه تنتصب.. دار حول نفسه.. ضربات قلبه ترتفع.. رائحة البخور التي تملأ المكان تخنق صدره.. يصغي بأذنيه محاولا التقاط أي صوت..

عيناه تعتدان تدريجيا على الظلام، يمكنه الآن أن يميز بعض قطع الأثاث وأماكنها.. يستطيع أن يميز جسد رجل ملقى في ركن الصالة على الأرض، ومكوم حول نفسه مثل النائم. اقترب منه ببطء.. قدماه تصطدمان ببعض الأطباق الملقاة على الأرض.. بعض بقايا الطعام متناثرة هنا وهناك..

توتره يزداد.. يبدأ التفكير في العودة من حيث آتى، فالأمر أشبه بفخ منصوب له..

صوت الحركة من ورائه أصبح واضحا الآن، التفت نحوها مباشرة، فإذا به يقف خلفه تماما..

رجل ضخم الجثة، غير واضح الملامح ينقض عليه، وقبل أن يبدي أي رد فعل، غرس في عنقه محقنا كبيرا.. دفعه خالد في صدره وهو يلقي بنفسه إلى الوراء، ليرتطم بجثة الشيخ عظيمة فيسقط فوقها.. نزع المحقن من عنقه، ثم نظر إليه مرعوبا وهو يراه فارغا، أي أن ما كان يحويه أصبح الآن داخل عروقه.. شعر بنار في جسده.. نار بلا وهج.. يريد أن يصرخ.. صرخ غالبا؛ لكن صوته لم يخرج من حلقه. ارتج من أعماقه وكأن شيطانا اقتحمه وسيطر على روحه، قفز محاولا تحرير نفسه منه، ولكنه غرق ثانية وسقط على الأرض عاجزا.

الغرفة تبدأ في الاتساع، كل شيء في مجال رؤيته بدأ في التمايل وأصبح مشوها.. الرسومات الموجودة على الجدران تتحرك.. الأثاث يطير في الهواء ليتخذ مكانه على السقف.. الجزء الأخير من إدراكه يعلن أنه يعيش الهلاوس..

راح خالد يدور في الصالة.. كل شيء من حوله يتحرك ببطء. هو نفسه كان يتحرك ببطء.. الحياة أصبحت أكثر جمالا ودفئا.. جثة الشيخ عظيمة تنهض من مكانها، وتمد يدها لتسلم عليه.. هذا رجل لا يحترم موته!

صافحه خالد وهو يتمايل قائلا كالمخمور:

- غني معايا يا شيخ عظيمة.. يلا قول ورايا.. نحن نأكل عدس.. عدس.. يا ابن الزانية

تركه الشيخ عظيمة، وذهب ليجلس على أحد الكراسي المعلقة في السقف.. مد خالد يده ليمسك ببعض الشموع، ما إن لامسها حتى تحولت إلى حشرات صغيرة انسلت من بين أصابعه. اللعنة على الحشرات! شعر بقرصه ناموسة في يده، قبل أن تتحول إلى عصفور يطير في الهواء.. أليس هذا غريبا؟.. أطلق العنان لنفسه ليضحك بهستريا.

يتحول المشهد لفتاة أمازونية ترقص حوله نصف عارية، وخلفها أمواج المحيط الزرقاء. يتوقف كل شيء فجأة، قبل أن يهب إعصار قوي ويقتلعها من مكانها. نادي عليها وهو يحاول اللحاق بها.. أمواج المحيط ترتطم بصدره وتعيقه.. الجفاف يصب في حلقه.. مياه البحر مالحة.. ثم اختفى كل شيء بغتة، لتظهر أشباح طويلة القامة تحيط به!

أصبح على يقين أن الشيخ عظيمة يسخر الجن فعلا، صرخ بأعلى صوته:

- حقك عليّ يا شيخ... أنا شايفهم دلوقت

الأشباح تحيط به وتتحدث معه بلغة غير مفهومة، بعضهم يكبل حركته، فلا يحاول المقاومة.. يغمض عينيه من شدة الضحك.. ثم سكون غريب يحيط به، وشيء ما من حوله يتغير..

فتح عينه ببطء.. وجد نفسه داخل كهف صخري منحوت في العالم السفلي للأموات.. صراخ المعذبين يدوي من حوله.. (بوسيدون) إله

البحر يظهر له قبل أن يدخل في شجار مع (هيدز) إله العالم السفلي، من أجل الظفر بروحه.. أين فتاة الأمازون لكي تنقذه؟..

ضوء شديد سطع كانفجار نجمي في وجهه، جعله يغلق عينيه مرة أخرى. انتظر بعض الوقت، ثم عاد وفتحها، ليجد نفسه وحيدا في غرفة صغيرة، مبطنة بالإسفنج خالية من الأثاث. نظر إلى ملابسه بدهشة.. هذه ليست الملابس التي كان يرتديها منذ قليل. قلبه ينقبض بشدة، ويرفض الانبساط من جديد.. الأمر أشبه بكونه مريضا في مستشفى.. مستشفى للأمراض العقلية..

وبكل ما أوتى من قوة، أطلق صرخة عالية:

- لاااااااااااااا

obeikan.com

(20)

إحساسها الكبير بالخوف لم يمنعها هذه المرة من تناول الطعام الذي وضع لها منذ قليل.. راحت تكسر الخبز إلى فتات صغيرة، تغمسها في طبق عسل ثم تضعها داخل فمها، وهي لا تكف عن النظر إلى الباب المغلق بخوف.. كانت محتجزة داخل غرفة صغيرة، لا يوجد بها غير سرير صغير.. يومان كاملان ترفض فيهما الطعام، إلا أنها لم تعد تستطيع التحمل. ارتعاشه جسدها الهزيل ولون بشرتها الصفراء يشكلان معنى لما تعيشه الآن.

مقبض الباب يتحرك في مكانه، صوت تكة خفيفة يصدرها القفل.. تهرع من مكانها سريعا مثل قطة صغيرة خائف، لتنزوي في أحد الأركان على الأرض وهي تضم ركبتيها ويديها إلى صدرها في خوف، وعيناها تتسعان عن آخرهما بترقب. لم تعرف سارة عما حدث لأمها، فقط تعلم أنها أسيرة لشخص ما، لا يبدو أنه يريد لها الخير.

فتح الباب، ودخل منه حاملا ثوبا صغيرا، ثوب عروسة. نظر إليها وإلى الطعام، ابتسم محاولا أن يكون طيبا، إلا أن عيناه كانتا تفضحان شره.. قال لها بهدوء شديد..

- سااارة... تعالي، أنت خايفة مني!

نظرت إليه شاعرة أنها تنظر إلى رجل فوق العادة، مخلوق خارق للطبيعية يمتلك أدوات الحياة والموت معا. استطرد، عندما وجدها تغمض عينيها خوفا وتدفن رأسها بين ذراعيها:

- شايفة أنا جبت لك ايه... ده فستان جديد... تعالي علشان البسه ليكى

لم تجبه..

صمت للحظة تاركا لها فرصة أخرى، ثم قال بصوت حاد وغاضب:

- كدا أنا ممكن ازعل منك

سوط يهبط على جسدها متجسدا في كلمة (ازعل منك)، آخر مرة قالها تحولت إلى صفعة قوية ألهبت وجهها، وجعلت إحدى أسنانها تغادر مكانها إلى الأبد. رفعت وجهها إليه وقد اغرورقت عيناها بالدموع، بكاؤها الصامت لم يعد ذو فائدة.. ترغب في أن تتوسل إليه، ترجوه:

- والنبي يا عمو... سيبنى أروح لماما

صوت توسلاتها يزعجه..

- والنبي يا عمو.... علشان خاطري... سيبنى امشي

جز على أسنانه كاتما غيظه، قبل أن يرفعها من على الأرض بقسوة بالغة، ويتحسس رأسها بيده وهو ينزل إلى مستوى قامتها قائلا:

- ليه يا سارة... انتى زهقتى مني؟

دموعها تبلل فستانها وهي تقول باكية:

- أنا تعبت... وخايفة

- أنت مش بتحبيني؟

- بحبك بس عاوزة ماما

ضغط بأصابعه على أذنها قائلا بغضب وبلهجة محذرة:

- عاوزاني ازعل منك؟

هزت رأسها نافية..

ابتسم وهو يفك سوستة فستانها ببطء قائلا:

- أنا هلبسك الفستان الجديد ده... عشان تعرفي قد إيه أنا بحبك

تعرت أمامه بالكامل، بعد أن نزع عنها كامل ملابسها.. تفقد بيده بضاعتها الصغيرة جيدا.. لا تملك حول ولا قوة.. أصابعه الباردة التي تعبث بثناياها زادت من ارتعاشها.. شعر بدفء جسدها يسري في أنامله، قطعة لحم صغيرة يشتهيها الآن.. ابتلع ريقه مثل ذئب يشتم رائحة فريسته. انتهى سريعا من إسكانها الفستان الجديد.. الثوب الجديد هدأ قليلا من روعها بعدما غابت من عينه نظرة الجوع. تأملها لدقائق في سعادة وتلذذ، ثم قبلها على جبهتها قائلا بشغف:

- قريب... قريب قوي

(21)

وتم القبض علية بمعرفة المباحث، وعندما قمنا بسؤاله عن الواقعة، وجدناه فاقدا للوعي وغير كامل الإدراك، لذا قررت النيابة العامة تحويل المتهم، إلى أخصائي الطب النفسي لوضع تقرير عن حالته الصحية والنفسية وإفادتنا بهذا التقرير في مدة أقصاها أسبوع، مع تشديد إجراءات الحراسة.

تذكر (أحمد) قرار إحالة (خالد) إثر دخول (سلمى) عليه غرفة مكتبه باكية العينين، جافة الدموع..

صافحها بدفء وهو يشير إليها بالجلوس قائلا بمودة:

- اتفضلي يا سلمى

قالت وهي شبه منهارة، وقد بدأت بعض دموعها تتحرر:

- ازاي يا احمد.. خالد يتبعت لمستشفى المجانين... ازاي؟

يقال لو صار الذهب متوفرا كالحديد، لما ساوى شيئا. لكن دموع الأنثى هي الشيء الوحيد الذي تزداد قيمته كلما كثر.. كادت أن تربكه دموعها وهو يقول:

- هدي نفسك الأول شوية وبعدين هفهمك كل حاجة

نادى على الساعي لإحضار عصير ليمون، دقائق وكان أمامه. انتظر حتى ارتشفت منه بضع رشفات، ثم قال:

- ماكانش قدامى غير كده يا سلمى... خالد اتقبض عليه وهو بيهلوس... هو الوحيد اللي كان موجود في مكان الواقعة... الإجراء القانوني انه يتحول للفحص الطبي... لكن أنا باطمنك، ماتقلقيش، كلها إجراءات لازم اتخذها، وبعدين هيتم الإفراج عنه.

صمت ناظرا إليها، قبل أن يستطرد قائلا:

- والراجل اللي أنت ذكرتيه في التحقيق... ماتقدرتيش تفتكر شيء مميز فيه، ممكن يعرفنا هو مين؟

أطرقت برأسها أرضا وهي تتمتم قائلة:

- زي ما قلت لك قبل كده، أنا كنت قاعدة في العربية بستنى خالد... فوجئت براجل بينط من شباك البيت وبيجرى بعيد... الدنيا كانت ليل ماقدرتش أميز فيه أي حاجة... جريت بسرعة ودخلت... لقيت الشيخ عظيمة مرمي على الأرض ميت، وخالد واقف يبص للسقف وعمال يضحك... حاولت اكلمه... هلوس بكلام مالوش معنى... ولقيته بينادي على بنت الأمازون

قطب جبينه ثم غمغم قائلا:

- الاحتمال الموجود، أن الشيخ عظيمة اتقتل قبل وصولكم، وبعدين لما خالد دخل، القاتل حقنه... ممكن بحقنة هلوسة بهدف انه يلبسه التهمة، لكن ماكانش يعرف انك موجودة بره... على العموم تقرير الطب الشرعي هيأكد كل حاجة، وعلى أساسه هتظهر الحقيقة

- طيب أنا عاوزة أزوره

- حاليا مش هينفع... وصدقيني كلها كام يوم وهيخرج... شهادتك زائد لو لقوا في دمه أثر لعقار هلوسة هيتمموا الإفراج عنه

نظرت إليه صامتة، لا تدرك ماذا تقول بعد كلامه، تريد أن تخبره بشأن شريط الفرح وما توصلا إليه. تتذكر وعدها لخالد بعدم إبلاغ البوليس، ولكن..

لكن هذا أحمد..

حسمت أمرها بصعوبة، وقررت ألا تخبره إلا بعد موافقة خالد..

obeikan.com

(22)

$10 \times 8 = 80$

80 متر هي مساحة الغرفة التي تحرك وسطها القاتل وهو يبتسم في سعادة..

سعادة الامتلاك.

أوان زجاجية كبيرة مرصوصة على الأرفف بعناية، يملؤها سائل أصفر، وبداخلها أجزاء آدمية، نظر إليها باستمتاع وتمعن..

كان يسير وسطها، وكأنه يسير وسط متحف للآثار.. هذا أيضا بالنسبة له متحف، لكن متحف لبقايا ضحاياه... أثر من كل فتاة نال منها.. كل جزء تم اقتطاعه كان بعناية و لهدف ما. زوج من الأعين يتوسط أحد الأواني الزجاجية، لسبب ما شعر بأن الحياة ما تزال فيهما، تذكر صاحبتهما، كم كان لحمها طريا.. ثدي (سامية) اتخذ مكانه على أحد الرفوف ليذكره بمقاومتها، كانت شجاعة بحق.. كانت لذيذة. اتجه إلى برطمان زجاجي مخروطي الشكل مميز عن الآخرين، كان فارغا تماما، تحسسه وهو يبتسم. جائزته في انتظاره، موجودة بالغرفة المجاورة، ومرتدية فستان جديد.

وضع منشارا خاصا بالعمليات الجراحية بجوار البرطمان، يحتاجه للحصول على قلب سارة من خلال شق صدرها.. عظام الصدر لن تكون صلبة في عمر سارة..

تذكر صوت دقات قلبها.. جميل. هاتفه يهتز داخل جيب بنطاله، فيخرجه وينظر إلى اسم المتصل. ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه، ضغط زر الرد قائلا بهدوء محاولا إخفاء لهفته:

- ازيك يا سلمى

....-

- حاضر... تحت أمرك

ثم أغلق الخط، وبداخله كانت تنمو ضحكة شريرة

...

يوما ما سوف أرحل عن الحياة تاركة خلفي كل من أحبهم.. سلمى وخالد، عندما أغمض عينيّ للمرة الأخيرة، أتمنى أن أغمضها على صورتهما، ولأن جاءني الموت الآن، لن أموت حزينة.. أعلم أنني سوف أظل أعيش دائما داخل قلب أحبتي.

أغلق خالد الصغير مذكرات الدكتورة (عفت) إثر سماعه صوت قدومها. حاول وضعها بسرعة داخل الدرج الخاص بها، قبل أن تكشفه..

- برضه يا خالد!... مش هتبطل تدخل اوضتى وتقرا مذكراتي؟

غاضبة على الباب تقف ناظرة إليه.. التفت ناحيتها وهو يخفى المذاكرات خلف ظهره قائلا:

- يا ماما هي اللي جت في ايدي

انتزعت المذكرات من يده برفق قائلة:

- والباب طبعا هو اللي انفتح ليك... والدرج كمان قالك إنها موجودة جواه... مضبوط؟

ابتسم مغمغما:

- عرفت ازاي يا ماما؟

- يا وله... عليا أنا الكلام ده

- والنبي يا ماما... أنا بحب اقرأ اللي أنت بتكتبه... أنت خطك حلو قوي

احتضنته في حب وهي تضع المذاكرات في مكانها قائلة:

- بص يا حبيبي، المذكرات ده شي خاص بيّ... زيها بالضبط زي سلستي الذهب اللي بلبسها وقت الخروج

نظر إليها متعجبا، ثم أخرج من جيبه سلسلتها الذهبية، وهو يقول اعتباطا:

- نسيت أقولك أن السلسلة كمان لقيتها بتجري ورايا وبتخش جواه جيبي

- !

استيقظ خالد شاعرا بدوار هائل، وبتبلد كامل في إطرافه. الأشياء من حوله تنضغط إلى الداخل، ثم تعود لتتوسع إلى الخارج.. كمية المهدئات التي حقن بها تجعله في حالة بين النوم والاستيقاظ، مذبذب الإحساس، غير قادر على إدراك ما حوله. ظهره يلتصق على السرير كجزء منه، غير قادر على أن ينهض.. قدرته على التفكير المنطقي يفتقدها تماما.. نظرة الخواء في عينيه تعكس ما يفكر فيه.. لا شيء!

الباب يفتح، ويدخل ممرض ضخم الجثة، يحمل صينية عليها الطعام، ويضعها أمام خالد قائلا:

- ده فيه توصية جامدة عليك.... شكلك واصل قوي ولك حبايب كثير

ثم أخرج من جيبه هاتفا محمولا صغيرا، متلفتا حول نفسه مثل اللص واستطرد قائلا:

- خد... فيه ناس عاوزة تكلمك

نظر خالد إليه وإلى التليفون بلامبالاة.. الممرض يقول بما يشبه الصياح:

- خلص بسرعة.... لو حد شافنا مش هتعدي على خير

أخذ منه الهاتف واضعا إياه على أذنيه بصعوبة..

الصوت الأنثوي المحبب إلى نفسه يأتيه من الناحية الأخرى مليئا باللهفة:

- خالد... ازيك عامل ايه

- سلمى... أنا كويس

- ماتقلقش يا خالد... أنا كلمت كل حد اعرفه وممكن يكون له تأثير... الكل إن شاء الله معانا ويساعدنا... كلها كام يوم ويطلع تقرير الطب الشرعي وهتخرج و..

قاطعها قائلا وهو يحاول التغلب على الدوار الذي يصيبه:

- خلى بس أنت بالك من نفسك... وحاولي ماتكونيش لوحدك... خليك دائما وسط الناس

- ماتقلقش عليا المهم أنت خليك مطمن و...

لم يسمع الجزء الأخير...

الهاتف انتزعه الممرض من يده بسرعة وأخفاه داخل معطفه، وهو يلتفت إلى جندي الحراسة، الذي دخل عليهم فجأة صائحا:

- خلاص

ابتسم الممرض في توتر وهو يقول:

- اعمل إيه... مش عاوز يأكل... باحاول أساعده... واهو كله بثوابه

تبادل العسكري النظرات بينهما ثم غمغم قائلا بشك:

- اتفضل دلوقتى... ده متهم في قضية قتل.. يعني مش لعبة... أنا مش عاوز حد يتكلم معايا

تحرك الممرض للخارج وهو ينظر إلى خالد ناصحا:

- حاول تأكل... اللي أنت بتعمله ده مش هيفيدك

الباب الحديدي يغلق على خالد من جديد، فينظر إلى السقف بأعين تائهة وهو يتساءل متى سينتهي كل ذلك..

...

- امتى العذاب ده يخلص يا رب

صرخ المنص بتلك العبارة بأعلى صوته، وهو يقف وسط المساجين في الحبس الاحتياطي، بينما هم ينظرون إليه غير مبالين بكلامه. اعتادوا على ذلك، رأوا الكثير من هذا الهراء والجنون من قبل. ضرب الحائط بقبضته في غضب، نار مشتعلة في صدره.. نار أوقدها فؤاد.

غضبه استحال وحشا، إحساسه بأن هذا الأخير يجلس على مقربة منه داخل غرفته الوثيرة المكيفة الهواء يمزقه من أعماقه..

- نار... نار بتولع في صدري

جز على أسنانه وهو يغمغم بتلك العبارة، ربت أحدهم على ظهره قائلا:

- روق يا معلم منص... هي دي أول مرة لك يعنى

التفت إليه قائلا وهو يضيّق إحدى عينيه:

- لا يا (عبود)... بس دي أول مرة آخد على قفايا جامد كدا

ضحك عبود وهو يقول ساخرا:

- تعيش وتأخذ غيرها.. وعلى رأى المثل... أهي ليلة وفراقها صبح

- مش المنص اللى يتعمل فيه كده... وشرف أمي لأوريه... ابن الكلب ده

- الحكومة دي مفيش حد قدها... مايقدرش عليهم غير اللي خلقهم

- أنا عاوز واحد منهم بس... واحد بس اطفي بيه ناري

- نام يا معلم منص، وعلى رأي المثل... الأيام الزفت فايدتها النوم

باب الزنزانة الحديدي يفتح، ليظهر خلفه أمين شرطة صائحا فيهم بلهجة أمره حازمه:

- ورا يا زفت منك ليه

بسرعة تجمع الجميع في أحد الأركان، تاركين مساحة واسعة له، فقال بازدراء وهو يضع أمامهم أكياس متنوعة:

- الزيارة... حرقوا نار في جتتكم

استلم المنص كيسا أسود متوسط الحجم، يعلم من هو المرسل، و يعلم ما يحتويه مسبقا. انتظر حتى انتهاء توزيع الزيارات وخروج أمين الشرطة، ثم اتخذ لنفسه ركنا، ففض الكيس، واضعا الأطعمة الموجودة به جانبا، ثم انتقى من بينها إحدى علب الجبن المبسترة بلهفة. ومن وسط القالب، أخرج بأصابع مرتعشة كيسا صغيرا يحوى خمس حبات برشام

التفت إليه (عبود) وهو يغمز له قائلا:

- قشطه يا معلم منص... يا كبير..

ثم تحسس العرق الغزير الذي يسيل حول عنقه مستطردا:

وعلى رأى المثل... جهنم مافيهاش مراوح

تناول المنص برشامة، فركها بين أصابعه، ثم استنشق مسحوقها في تلذذ..

فتح علبة أخرى، وأخرج من وسطها مشرطا صغيرا، نظر إليه بتمعن، ثم وضعه داخل حذائه أسفل البطانة..

مد يده بحباية إلى عبود، قائلا بلهجة ذات معنى:

- مالكش دعوة يا عبود... فاهمني؟

اختطفها منه بلهفة قائلا:

- دانا أعمى واخرس ومابسمعش كمان... وعلى رأي المثل... خراب يا دنيا عمار يا مخ

- وفي حاجه كمان عاوزك تعملها لما تخرج... وهخلي مزاجك عالي، فوق السحاب

- أنا في الخدمة.. وعلى رأي المثل... حط راسك بين الروس وقول يا قطاع الرؤوس..

ثم صمت للحظة مستطردا في خبث:

- طب واللحاليح

- كتيرة قوي... هديك اللى انت عاوزه

- حبيبي... وعلى رأي المثل... بفلوسك بنت السلطان عروسك

اقترب المنص من اأذن عبود، يهمس له بما سيفعله. بعدها استدار ناحية الحائط، وكتب عليه بقطعة طباشير:

- ظلمت فتظلمت فزاد ظلمي... العدالة.. لو كان الدفاع عن النفس جريمة فليحيا الإجرام

obeikan.com

(23)

أوراق شجر متناثرة، وكراسي خشبية مثبتة على الأرض. أعين زائغة على أجساد تسير بلا هدف. جثة شجرة مقطعة الأوصال بجانب السور العالي، وقوالب من الطوب القرمزي تتراص بعناية لتشكل مبان وغرف لها شبابيك مغلقة بالأعمدة الحديدية، وراء باب عال فولاذي أشبه بأبواب ألف ليلة.

نظر خالد إلى كل ذلك، وهو يجلس على أحد الكراسي التي تتوسط حديقة المستشفى. استعاد مؤخرا الجزء الأكبر من تماسكه العقلي والبدني. نزع حذاءه تاركا قدميه تلامسان العشب الضامر، فأحس بالحياة قليلا. رائحة شيء نتن تصل إلى أنفه، لا يدري مصدرها. اقترب منه عجوز نبت فجأة من الفراغ، كان يرتدي ترينتج أزرق ويضع فوق رأسه قبعة (بالما) مثل قبعات رعاة البقر، مجنون آخر من الذين يملئون هذا المكان، همس في اذن خالد وهو يتلفت حول نفسه في حذر:

- خلى بالك... إحنا متراقبين

رد خالد بهدوء:

- كلامك مضبوط يا حج... كل اللي تقوله صح

عاد العجوز لينظر من حوله وهو يقول بشك:

- كل شيء تقوله أو تعمله بالنسبة لهم جنون... كل ما تحاول تكون عاقل هيقولوا عليك مجنون... لو حاولت تبتسم هتبقى عندك أوهام و هلاوس... ولو ماابتسمتش فانت عندك اكتئاب... ولو قعدت ساكت فانت منطوي على نفسك وعندك انفصام... انا زيك كنت مفكر نفسي عاقل... لكن لما ولادي جابوني هنا عرفت ان انا مجنون

نظر إليه خالد بأسف وقد فهم قصته قبل أن يحكيها.. مأساة أخرى. ربت على كتفه محاولا بث الأمان في روحه قائلا:

- ماتقلقش يا حج... ان شاء الله هتخرج من هنا

نهض العجوز صارخا كاشفا عن فم خال من الأسنان:

- اللي بيدخل هنا مابيخرجش... طلعونى مجنون... انا مش مجنون... هما اللى مجانين.

هرع اثنان من الممرضين بسرعة ناحيته... أحدهما كبل ذراع العجوز من الخلف

نهض خالد واقفا قائلا باعتراض:

- بالراحة... ده راجل كبير

انقض عليه الممرض الثاني بلا تفكير، قبضتان من حديد أحاطتا بخصره من الخلف. صراخ العجوز شكل صفارات إنذار متواصلة بلا انقطاع. حاول خالد تخليص نفسه، يعلم أن ما يفعله ليس بصواب إطلاقا، لكنه تصرف بغريزته دون تحكم.

اتكأ بظهره على الممرض الذي يكبله من الخلف، ثم ركل الآخر الذي يقيد العجوز بكلتا قدميه.. ضربة قوية حررت العجوز، بينما سقط هو فوق الذي يكبله على الأرض. نهض من سقطته محاولا تتبع خطى العجوز الذي هرول مبتعدا وهو ما يزال يصرخ.. قدماه ترفضان إطاعة أمره.. سقط على وجهه إثر عرقلة أحد الممرضين له، قبل أن ينقض الاثنان عليه في وحشية، يكاد وزنهما الثقيل أن يحطم عظام صدره.. حاول أن يرفعهما من فوقه بيأس، لكن محقنا كبيرا ينقض على عنقه طاعنا إياه بسائل أصفر ينطلق بلا توقف داخل عروقه

...

برق وجه سلمى، في مخيلة خالد لينير طريقه وهو يدلف إلى حجرة الفحص الطبي..

استقبله طبيب يجلس خلف مكتب عريض، مشغول في مراجعة ملف ما أمامه.. أشار له بالجلوس دون أن ينظر إليه وتركه نحو خمس دقائق قبل أن يرفع وجهه نحوه، ويبدأ في الكلام:

- أنا الدكتور(عثمان)... أتمنى ان أقامتك هنا كانت مريحة

- جدا

- بجد... مع اني فكرت انك ممكن تكون تعبان ومتضايق

- كان في الاول لكن دلوقتى بدات اتعود

- احنا عملنا ليك فحص دم واكتشفنا وجود عقار(ال اس دي) في دمك... انت بتتعاطى؟

- لا

- ايه رأيك في الإنسان اللي بيتعاطى مخدرات

- انسان مريض ومحتاج للعلاج

- شايف نفسك محتاج تتعالج؟

- لا

أخرج له ملف من درج مكتبه قائلا:

- الملف ده بتاعك، ومكتوب فيه أن سبق القبض عليك في قضية شرب حشيش

حرك خالد يديه في عصبية وهو يقول:

- كان من زمان قوي وأنا دلوقت اتغيرت زي ما الناس بتتغير

نظر إليه مليا ثم قال:

- يعنى أنت شايف أن الناس بتتغير... عندك صعوبة في التمييز بين الواقع والخيال؟

- لا أنا قصدي...

قاطعة بحدة:

obeikan.com

- حاسس أن الناس بتضطهدك وتحاول تؤذيك؟

قالها وقد علت على وجهه ابتسامة ظافرة، مسندا ظهره إلى مسند مقعده في استرخاء، شاعرا بإحساس مصارع حاصر خصمه في ركن الحلبة

نظر خالد إليه، ثم ابتلع ريقه، وبداخله كان يرغب في أن يسأله: "أنت عاوز منى إيه بالضبط يا دكتور، و يا ترى كلام الراجل العجوز، ان اللي بيدخل هنا مابيخرجش كان مضبوط؟"

obeikan.com

(24)

على كرسي بلاستيكي غير مريح، جلس المنص في ممر غرف النيابات..

أمين شرطة يجلس بجواره، تم تعينيه لحراسته، وقد ارتبط معه بقيود حديدية تحسبا لمحاولاته الهروب. مد له المنص بسيجارة (مالبورو) يعلم أن لها أثرا بالغا في كسر حاجز الصمت بينهما. ابتسم أمين الشرطة الغارق في عرقه وهو يأخذ منه السيجارة.. دخانها يتصاعد سريعا مسجلا نقطة في صالح المنص. يدرس منص الأمين جيدا.. لم يكن يبدو عليه الذكاء، لكن جسده الشاب وملامحه الصعيدية يدلان على قوته وعزمه. شخص مثله لن يكون من السهل خوض قتال مباشر معه.. الحيلة.. فقط الحيلة.

رجال الشرطة يغدون أمامهم طوال الوقت، بملابسهم الميرى وأجهزتهم اللاسلكية.. نظر المنص في عين الأمين، فرأى أنه مهموم بأشياء كثيرة، ليس من بينها هو. بعد قليل، تم عرضه على النيابة، التي أصدرت قرارا باستمرار حبسه 45 يوما على ذمة التحقيق.. لم يكن يعبأ بذلك.. الوقت لم يعد ذا أهمية بالنسبة له.. الحرية ليست هدفه.. الهدف الآن شيء آخر أكثر متعة.

يسير الآن بجوار الأمين، في اتجاه الخروج لركوب البوكس، من أجل رحلة العودة إلى السجن. مد له سيجارة أخرى وهو يقول بابتسامة ذات أسنان سوداء متهدمة:

- مزنزق اوى يا كابتن... ادخل بس على السريع الحمام

نظر إليه الأمين بتردد للحظة. يبدو أمامه شخصا طيبا غير مؤذٍ، ما الذي يمكن أن يفعله؟.. عشرة جنيهات وضعها المنص في جيبه العلوي حسمت تردده:

- طيب

اتجه به إلى دورة المياه، فتح إحدى غرفها، فتسربت منها رائحة خطايا البشر. دخل المنص وهو يقول بود، بعدما حل الأمين قيوده:

- تشكر يا ذوق... وربنا أنت أمير

مد يده يغلق الباب، لكن الأمين منعه قائلا بصرامة:

- قدامي

ابتسم المنص، ثم خلع بنطاله وتقرفص على القعدة البلدي قائلا ببجاحة:

- وماله... احنا رجاله زى بعض

الأمين لا يدعه يغيب عن نظره، كان غير محرج من شيء. لقد شاهد أفلاما كثيرة، ويعلم أن تلك أقدم حيلة للهروب، دائما ما تتم من خلال الحمام والقفز من شباكه. في الواقع، هو لم يكن يحتاج لذلك، لأن الحمام كان بلا شبابيك، فقط شفاطات هواء صغيرة، يستحيل أن يخرج منها أحد..

الوقت.. المنص فقط يحتاج للوقت. انتهى سريعا، ثم بدأ يرتدي بنطاله، وهو يبصق على الأرض ناظرا إلى ما بين ساقيه. جذبه الأمين من يده قائلا، في محاولة منه أن يبدو صارما:

- ماتخلص بقى

لم يبد المنص أي رد فعل أو مقاومة.، كان يستجيب ليد الأمين ويطاوعه مثل طفل صغير. وضع الأمين القيد حول رسغ المنص. ولكنه لم يكد يهم بإغلاقه، حتى هوى عليه المنص بلطمه مباغتة من مرفقه على وجهه، هشمت له أنفه بصوت مزعج، فصرخ في ألم. عاد ينقض على الأمين في شراسة أكثر، لم يمهله وقتا ليشاهد دماءه وهي تسيل على ملابسه، بل عاجله بلكمة في معدته، جعلته ينحني على نفسه، قبل أن يمسك رأسه بكلتا يديه، ويضربها بباب الحمام، فتترك عليه بقعة دموية هي أثر مباشر لجرح رأسه.

لهث المنص للحظة وهو يشاهد الأمين ساقطا على أرضية الحمام، مضرجا في دماؤه يتأوه من الألم. لم يفقد الوعي بالرغم من عنف الضربات، كان ظن المنص محقا في أنه قوي البنيان.. ليس هذا وقت التغزل في قوته؛ أطلق المنص ساقيه للريح.. كل ثانية لها ثمن الآن، مازال داخل المحكمة، وهناك رجال شرطة متناثرون في كل الأرجاء، ويمكن في أي لحظة أن ينتهي كل ما عمله وتسير الأمور إلى نحو أسوء. سمع سباب الأمين الذي انطلق خلفه في غضب، فكاد أن يفقد توازنه على البلاط من فرط هرولته. أقدام المنص السريعة تسابق بعضها البعض، وهو يعبر كالرصاصة من أمام الناس، غير تارك لهم المجال

لاعتراضه أو الإمساك به. البعض حاول أن يجرى خلفه، لكن ضوء الشمس كان أسبق منهم.. هواء الشارع عبر خلال أنفه ليهدئ من روعه.

صدره، المليء بسنوات من الدخان، يئن من الألم، غير قادر على احتمال المزيد من المجهود. لهث في إرهاق باحثا عن حصان هروبه، وهو يضع يده على صدره.. موتوسيكل صيني شائع الطراز يقف أمامه مباشرة، قفز خلف صاحبه الملثم، دون أن يعطي لنفسه فرصة لتفكير.

سمع صوت طلقة نارية في الهواء، مطلقها أجبن من يطلقها عليه مباشرة وسط الناس.. ربت على كتف سائق الموتوسيكل، بعدما تأكد من أمان الطريق قائلا:

- عفارم عليك يا عبود... راجل والله

يزيل عبود اللثام عن وجهه، فتبدو ملامحه القاسية وهو يقول متمايلا بالموتوسيكل وسط الحواري الضيقة متشعبة الاتجاهات:

- عشان تعرف ان كل قرش أنا خدته منك استحقه عن حق، وعلى رأي المثل... اللي سترها في الأول يسترها في التاني

رفع المنص رأسه إلى السماء، ونظر إليها قائلا بلهجة مسرحية:

- شامم يا عبود

التفت عبود ناحيته غير عابئ بالطريق، وهو يهرش خده الذي تقطعه ضربة مطواة بالطول قائلا باستغراب:

- شامم ايه؟

مال عليه المنص صائحا بفرح:

- دى ريحة الحرية يا عبود... ريحة الحرية

ثم سكت لوهلة قبل أن يستطرد وهو يعض على نواجذه:

- وريحة الدم... دم (فؤاد)

obeikan.com

(25)

وبعد عمل التحريات اللازمة، بمعرفة البحث الجنائي، وبعد سؤال شهود الواقعة، وجيران المجني عليه، وجدنا أن المتهم الماثل لا صلة له بالواقعة، وحَسن النية، وأنه تم الزج به، عن طريق الحقن من الخلف للتضليل والإيهام بأنه محدث الواقعة، ليتسنى للفاعل الأصلي الهروب والتخفي، لذا قررنا نحن أحمد منصور، بصفتنا، إخلاء سبيل المتهم من سرايا النيابة، وتكليف مدير البحث الجنائي بالتحري عن الفاعل الأصلي، والقبض عليه لمثوله أمام عدالة القانون.

انتهى (احمد) من صياغة قرار الإفراج عن خالد، بعدما اطلع على تقرير الطب الشرعي. كان يملى القرار على سكرتير التحقيق، وهو ينظر إلى خالد شاعرا بأنه يخفى أمرا ما.. حدسه ينبئه بذلك.. يشعر أيضا أن سلمى تعلمه، لاحظ أكثر من مرة ترددها، ترغب في إخباره، لكن لسبب ما تتوقف وتتراجع.

نصف ساعة وتم إنهاء الإجراءات، بعدها أصبح خالد حرا في الذهاب.. انتهت الأزمة، لكنها أضاعت معها وقتا ثمينا، يعتقد خالد أنه ما يريده القاتل لإخفاء أموره. محاولته لإلصاق التهمة به تدل على أنه قد اقترب منه كثيرا. لكن السؤال الأهم الذي على خالد أن يطرحه لنفسه.. لماذا الشيخ عظيمة؟.. ما الذي كان يخافه القاتل في بقائه على قيد الحياة؟

بأعين نصف مغلقة، يتابع خالد الطريق وهو يجلس بجوار سلمى في سيارتها. رائحة السيارة أرخت أعصابه، وجعلته يرغب في النوم. جسده الواهن وعضلاته المرهقة، بالإضافة إلى عقله شبه النائم في أمس الحاجة إلى قسط من الراحة. صوتها يأتيه مبحوحا:

- شكلك تعبان قوي

- كانت تجربة صعبة.. عمري ما تخيلت اني ممكن أقع في موقف زي ده

- الحمد لله انك خرجت منها على خير

- تعرفي في المستشفى شفت حكايات تنفع قصص أفلام... يعنى مثلا راجل كبير في السن ولاده رموه في المستشفى عشان يحجروا عليه

- إحنا بقينا في زمن صعب... من بره بني آدميين ومن جوه وحوش

- عندك حق.. دلوقتى لو فتحتى صفحة الحوادث.. هتلاقى حوادث اقل حاجة ممكن تتوصف إنها بشعة.. وبقى في تفانين في ارتكاب الجريمة

- في رأيك.. ده راجع لشخصيتنا ولا بسبب النشأة.. بعبارة تانية.. الشر بيتولد معانا ولا احنا اللى بنصنعه بسبب ظروفنا

- من وجهة نظري الإنسان بطبعه بيميل لعمل الخير، لكن جوه كل واحد فينا جزء شرير... ظروف معينه ممكن تخرج الشر... زي الفقر والفساد والظلم وغياب العداله... يخرج امتى الشر ده... بيكون حسب

قدرة الشخص على التمسك بالمبادئ والقيم والدين... لكن اكيد في حالات شاذة وبتخالف الطبيعة

- انا عملت بحث على النت عن القتلة المتسلسلين... بصراحة النوعية دي بتكون نفسيتهم معقدة لكن الشيء المشترك اللى انا لاحظته... انهم دايما بيكونوا اناس عاديين... من النوع المحبوب والبعيد عن الشبهات... ساعات بتكون لهم خلفيات مأساوية في حياتهم بيقدروا انهم يخفوها

- زى الشخص اللي بنحاول نوصله... ممكن يكون أي واحد احنا نعرفه... وده الخطر الأكبر... لأنك مابتكونيش متوقعه الضربه امتى ومنين

- تفتكر انه واحد قريب مننا؟

- ده احتمال كبير جدا

حل صمت طويل بينهما، إلى أن وصلا إلى المنزل.. أمام المنزل توقفت بالسيارة متسائلة:

- هتعمل ايه في الصندوق؟

- خلاص يا سلمى... أوعدك إن كل شيء هيخلص الليلة.

نظرت إليه والى تصميمه باستغراب، استطرد قائلا:

- تفتكري ليه القاتل قتل الشيخ عظيمة؟

- ضحية من ضمن ضحاياه

- لا يا سلمى... الشيخ عظيمة كان خيط ممكن يقودنا له... هو ظن ان عظيمة ممكن يكشفه عن طريق السحر

- ويفرق ده في ايه

- يفرق انه بيؤمن في السحر... زيك... وان اللي أنت بتخافى منه هو بيخاف منه

دق قلب سلمى بقوة، ولأول مرة منذ فترة، لا تفهم ما يرمي إليه.

...

obeikan.com

(26)

- صباح الفل يا باااااشا

اللحم الطري، الجسد المنحوت على هيئة افروديت، أوضاع الحب العشرة، المضاجعة الأفضل في العالم، كان هذا صوتها..

(سماح)

كل خلية في جسد فؤاد تنتفض لذكرى آخر معركة بينهما على الفراش. ابتسم وهو يرد عليها محاولا أن يبدو غير مبال:

- خير يا بت

يأتيه صوتها من الطرف الآخر راقصا لاعبا:

- عوزاك

سخونة صدره قاربت على حرق القميص الذي يرتديه وهو يقول:

- وماله

ثم تذكر أمرا فاستطرد بلهجة خشنة:

- الواد المنص متعرفيش عنه حاجة؟

- اقطعك يا باشا... من يوم ما اتقبض عليه ولا سمعت عنه حاجة

- انت ماتعرفيش انه استغفل الحراسه وهرب؟

- وأنا مالى يا باشا... المهم... استناك النهارده؟

يقال إن الأنثى الأجمل هي التي لم يتذوقها الرجل، لكن هذه القاعدة لا تنطبق على سماح.. فكر للحظة ثم قال:

- هشوف كدا وابقى اتصل عليكى

تستدرجه قائلة:

- ثواني والنبي يا باشا... قبل ما تقفل الخط... عاوزه منك خدمة

ضحك في نفسه وهو يسمع ذلك، تريد الثمن مقدما

- قولي

- بوتيك الهدوم... بتاعي... كل شوية بتوع المحليات يعملوا لي محضر... اكمني يعني ماليش ظهر

- ماشي... أنا هعمل معاهم الصح

- وأنا مستنياك وهظبطلك الليلة

ثم ضحكت مستطردة بدلال:

- أحلى ليلة وحياتك

أغلق الخط واضعا سيجارة في فمه، ثم أشعلها وراح ينظر إلى دخانها مستمتعا.. دخان يعلو..

ويعلو..

...

الدخان كاد أن يعميها، فحركت (سماح) يدها باعدة إياه من أمام وجهها، وهي تناول الهاتف إلى يد جافة قاسية التعاريج..

نظرت إلى صاحبها بخوف شديد، تعلم أن مثله لا ينبغي العبث معه. ماء نار على وجهها هو العقاب المثالي لها في حالة إثارة غضبه. ابتلعت ريقها بينما ضحك وهو يرمى جسده على كنبة وثيرة، نافثا دخان سيجارته قائلا بارتياح:

- شايفة يا بت... زي التور... وقع في المصيدة

قالت بتوتر:

- خلي بالك يا منص... فؤاد مش سهل

- وماله... أقرقشه... بس بالذمة حكاية انك عاوزه منه خدمة... حركة معلمين... كده هو مش هيحط في دماغه أي خوانة... بالضبط زى ما عمل معايا

أعطته ظهرها واتجهت ناحية الباب قائلة:

- أنا ماليش دعوة بالموضوع ده... أنا هروح استخبى عند أي حد معرفة

بعصبية ركض نحوها وجذبها من ملابسها، ثم لوي معصمها بقسوة.. صرخت من الألم محاولة تخليص نفسها، فأسقطها أرضا وجثم فوق صدرها قائلا بحدة:

- لا يا روح أمك... مااقدرش آمن لك... مش هتخرجي من هنا غير لما يوصل

حاولت إبعاده عنها وهي تصيح بتوتر:

- أنا ماليش دعوة... خليني أنا بعيد

قرب وجهه من وجهها وهو يقول كذئب جائع:

- ماينفعش... أنت جوة اللعبة دلوقتى يا قشطه

وبإحدى يديه الملهوفة مزق صدريتها، بينما تولت اليد الأخرى نزع أسفل ملابسها..

...

أشياء كثيرة رآها خالد خلال حياته، بعضها جيد، الآخر سيء، بعضها يمكن فهمه، وأخر لا يمكن تفسيرها؛ لكن لم يشعر يوما بمثل هذه الحيرة التي تنتابه الآن، وهو يقرا الأحرف المختلطة بالأرقام التي وجدها بالأجندة..

أمام الصندوق الذي عثر عليه، كان يقف فاتحا إياه.. كقنبلة انفجرت فيه، قام ببعثرة كل ما كان يحتويه.. الهيكل العظمى مفرود على الأرض بعناية، حيث تم رص العظام بترتيبها الطبيعي، ليتشكل أمامه جسد عظمى كامل، الاحتمال الأقرب هو انه لامرأة، فالعظام تبدو رقيقة ورفيعة، بعكس المعتادة في الرجال. هناك كسر في قاع الجمجمة، يبدو أنه نتيجة ضربة بآلة حادة، واحتمال أن تكون هي سبب الوفاة. لم

يكن خبيرا بالطب الشرعي، لكن العظام تخبر عن أسرارها، كمن ترغب في التحدث.

استغل خروج سلمى، لكي يدخل في نزال أخير مع الصندوق وما يحويه.. (أ 36 - ج 44 - ب 10) ماذا تعني؟ يعود بذاكرته إلى الوراء.. أيام ألعاب الطفولة. أرقام كثيرة تكتبها له الدكتورة (عفت) وهي تبتسم قائلة:

- حلها يا بطل

يدرك السر.. والحل أيضا.. كل رقم له حرف مقابل.. سريعا يجيبها، تبتسم في سعادة وتربت على رأسه.. يغوص داخل عينيها الدافئتين، يغوص داخل كل حيها و..

ويستيقظ من أفكاره..

يعود وينظر للأرقام، هل تكون كتبتها كما اعتادت قديما؟.. لا يتذكر ترتيب الحروف الأبجدية جيدا.. يقدح زناد فكره، ثم يمسك ورقة وقلما.. إذا تم استبدال الحروف بالأرقام تكون النتيجة كالتالي.. (1 36 - 5 44 - 2 10) تبدو مثل رقم تليفون، لكن ينقصه الصفر في بدايته. سحب تليفونه، وطلب الرقم بعد ما أضاف له صفرا على شماله. بلهفة انتظر سماع صوت الجرس، ليأتي الصوت آليا خاليا من المشاعر:

(الرقم الذي طلبته غير صحيح نرجو التأكد من الرقم وإعادة المحاولة)

مع سماع كلمة المحاولة، علم أن أولى محاولته فاشلة. عاد يبدل الأرقام إلى حروف.. أصبحت النتيجة كالتالي.. (أ ح ت - ج ث ث - ب أ) لا توجد غير كلمة واحدة يمكن قراءتها، (جثث) أهي مقصودة؟.. بقية الحروف لا يمكن أن تشكل كلمة مفهومة.

يشعر بالألم في فقرات ظهره من كثرة الانحناء.. إرهاق التفكير والهواجس مؤلم حقا. عيناه تكادان تقفزتن من محجريهما صارختين طلبا للراحة. حطم قيود أوصاله، ونهض من مكانه في اتجاه المطبخ يصنع قهوة سوداء خالية من السكر، يعلم إنها ستكون مرة.

الرشفة الأولى منها جعلت جسده يرتعش من مرارتها. تناسى الحبيبات الدقيقة التي التصقت بلسانه، تاركا الكافيين يحرك عقله ويوقظه من سباته القادم. ابتلع قرص بنادول مكملا القوة الثنائية، تحسبا لأي عوارض صداع محتمل. نظر إلى الحروف والأرقام من جديد.. جولة أخرى يبدأها.

لا توجد نادلة تعلن أنها الجولة الثانية، أو جرس يدق.. لكنه يعلم أنها الجولة الثانية.. تذكر كيف كان يعد وهو صغير..

"الله واحد.. مالوش ثانى.. مالوش ثالث.. العدد أربعة"

باب جديد يفتح داخل عقله المغلق..

- في المنطقة (د)

ترددت تلك الكلمة داخل رأسه، مثل دقات جرس نحاسي عملاق.. من قال هذه العبارة؟.. لا يذكر.. سمعها يوم الجنازة. هذه أرقام لمقابر داخل جبانة بور فؤاد!..

انتهت الجولة والنزال، الحكم دق الجرس، الضربة التي أنهت قتاله كانت عشوائية، خدمتها الصدفة.

ارتدى ملابسه على عجل.. منتصف الليل، أو ساعة الذئب كما يطلق عليها.

لماذا لم ينتظر حتى الصباح؟.. لماذا لم يخبر سلمى بما توصل إليه، حتى تكون دعما له، أو خط دفاع ثاني، في حالة تعرضه للخطر؟..

لماذا دخلت ليلى إلى الكوخ، وهي تعلم أن الذئب متنكر في زي جدتها؟..

هل أكل الذئب حقا جدة ليلى؟..

هل هذه قصة حقيقية أصلا؟ ولماذا أذكرها من الأساس؟

obeikan.com

(27)

- (احمد) ده عضمه طريه.. أنا في الأول قلت اديله فرصه... أنا ظبطت كل مكاتب النيابه وفيه شوية شكاوى من الآخر... هتطيره خالص... عيب... أنت عارف ابن يومين ما يعيش تلاتة... أي خدمه يا كبيرنا... تلامذتك يا باشا

أنهى (فؤاد) المكالمة، ثم وضع الهاتف في جيبه وهو يصعد درجات سلم العمارة، حيث شقة (سماح). كان يرتدي ملابس كاجوال أنيقة، تعكس رغبته في اللهو وتخفي قسوته. طوال الطريق يفكر فيها.. مباراته معها في المرة السابقة كانت حتى الثوان الأخيرة. صحيح أنه سجل بين ساقيها عدة أهداف بارعة، لكنه في النهاية ترك المرمى خاليا، في حاجة إلى مزيد من التسديدات. اليوم مباراة جديدة.. لكن عكس السابق، أصبح يدرك الملعب جيدا، يدرك كل مداخله وكل أسراره.

وقف أمام بابها، دق الجرس.. لحظة انتظار..

المنص في انتظاره من الناحية الأخرى.. فريسته وصلت.. أشار بطرف عينيه إلى سماح أن تفتح الباب..

التردد والخوف يبدوان في كل خلجة من خلجاتها.. يعلم المنص في قرارة نفسه أنها نقطة الضعف في خطته. ربما لو وضعت على صدرها لافتة تنبه بها غريمه لكان أفضل مما هي عليه الآن..

أشار إليها مره أخرى أن تفتح الباب.. الكلام متوقف بين لسانه وشفتيه، لا يرغب في فضح نفسه. أخرج خنجرا ضخما من يده،

وحركه تحت رقبته، في تهديد صامت أن الذبح سيكون مصيرها حسم أمرها. مشهد رقبتها مفصولة عن جسدها أنهى ترددها.. تعلم أنه صادق في تهديده..

عدلت من هندامها بسرعة، ركزت على إبراز جزء من صدرها عاريا.. تدرك عشق الرجال لتلك الصفحة البيضاء وما عليها من فاكهة.. فتحت الباب، وبأفضل ابتسامة لديها استقبلته..

- باااااشا

دخل بسرعة، وأغلق الباب خلفه بظهره وهو يدفعها إلى الداخل. يحب أن يكون كل شيء وراء الأبواب. عيناه تتوهجان ببريق الشوق والاشتهاء.. احتضنها وهو يغترف مؤخرتها قائلا بسوقية:

- الليلة ليلتك

لكن أي تخشب هذا الذي لم يعتده في جسدها؟.. هناك شيء ما خطأ.. التوتر ملحوظ في عينيها..

تراجعت للوراء، وعيناها تتسعان في خوف.. أقدام تتحرك وراء ظهره، التفت نحوها ببطء.. عينان غاضبتان وخنجر ضخم هم كل ما استوعبته حواسه.. وأدرك الآن الفخ..

الفريسة علمت بأنها قد وقعت في المصيدة.. المنص يقترب منه بوحشية، بينما تراجعت سماح لتختفي في غرفتها خائفة من معركة الذئاب. نيران المنص تصرخ قائلة:

- كدا تغدر بالمنص... أنت استهترت بيا قوى يا فؤاد

تراجع فؤاد بحذر، يتلمس موقع أقدامه جيدا؛ السقوط معناه نهايته

غمغم قائلا:

- اهدا يا منص... كل شيء ممكن يتحل بينا... القضية هخرجك منها... وهنرجع نشتغل تاني مع بعض وأحلى كمان من الأول

ابتسم المنص وهو يقترب منه ملوحا بالخنجر قائلا:

- مابقاش ينفع دلوقتى... احنا خلاص وصلنا للنهاية

وبكل قوته، انقض بالخنجر على فؤاد..

نصل حاد اتجه مباشرة ناحية القلب.. ثم دوت صرخة..

...

وقف خالد أمام البوابة الرئيسية للجبانة.. سور عالي يحيط بها مكتوبا عليه 99 اسم، هي أسماء الله الحسنى.. المكان خال تماما من المارة.. بعض كشافات الإنارة لا تُذهب الظلمة، لكنها كانت قادرة على تخطيط الفوارق بين الأشياء. بخار ماء يخرج من اللا مكان يضفى جوا دراميا..

لماذا دائما المقابر توضع على أطراف المدن؟ دار حول السور باحثا عن منفذ. المكان محكم الإغلاق. لكنه يتذكر أن هناك فتحة في السور، اعتاد العبور منها في طفولته.. اختفت الآن تماما، ربما بسبب انتشار

سرقة الجثث أو اغتصاب الفتيات بداخلها، تم إحكام مداخلها ومخارجها.

يقف من جديد أمام البوابة الحديدية.. ضخمة.. مرتفعة.. رماح مصوبة للسماء في أعلاها.. أسلاك شائكة ملفوفة حول أعمدتها. خلع قميصه، وصنع منه قفازا ليده اليمنى ليتمكن من التسلق.. بحركات تبادلية بين يديه وقدمه استطاع أن يصل إلى أعلى البوابة. يحذر من أن يعلق أحد الرماح بجسده وهو يهبط، كل سنتمتر يتحركه يمثل له تحديا، وغلطة واحدة تكفي كي تخترق إحدى الحراب جسده.

انتهى، وعبر إلى الناحية الأخرى.. قدماه تلامسان الأرض في النهاية. نظر إلى القبور وشواهدها العالية.. كل شيء هادئ، ميت بسلام. شعر أن الهواء هنا أكثر برودة مما في الخارج.. اهتزاز المصابيح وسط شواهد القبور بعث بعض الرهبة في نفسه. ارتدى قميصه الذي تمزقت أجزاء كثيرة منه، بينما يقرأ لافتات خشبية تدل على أقسام الجبانة تسهيلا للزائرين

القسم الأول (أ)

يسير في اتجاهه.. يعلم وجهته جيدا.. المقبرة رقم 36

أصوات عواء ذئاب تصل إليه.. غريبة! هل توجد ذئاب في بور فؤاد، أم أن هذه مجرد كلاب مبحوحة الصراخ؟

أمام المقبرة 36 توقف.. أمام المقبرة 36 صمت كل شيء بغتة.. مقبرة عادية جدا، تحسس بابها بيده. الجبس الموضوع عليها يبدو حديثا..

هذه مقبرة تعرضت للفتح منذ أيام قليلة. تناول حجرا ضخما، وراح يحطم به الجبس الذي يحكم إغلاق الباب.. ضربات قوية تحطم سكون الليل، وتقلق راحة بعض القطط التي بدأت تتقافز من حوله. هل صحيح أن الجن يحب العيش في أبدان القطط؟

أمسك طرفي باب المقبرة، ثم رفعها من مكانها. مد بصره إلى الداخل.. عين الموت المظلمة تنظر إليه.. ينظر إليها.. نفحة تراب تصفعه على وجهه.

أخرج هاتفه المحمول، ثم صوب كشافه، محطما جزء من ظلام المقبرة.. اتسعت عيناه ذعرا، وأجفل في مكانه، إذ لم يكن يتوقع ما يراه..

لقد وجدها..

وجدها في آخر مكان يتوقعه..

وبداخله سرت ارتجافة الخوف!

...

تنحى فؤاد متفاديا خنجر المنص، بمهارة رجل شرطة محنك، ثم حمل مقعدا صغيرا، وهوى به على يد المنص، الذي صرخ في ألم والخنجر يفلت من يده. حاول المنص أن يلتقط الخنجر مرة أخرى، لكن فؤاد عاجله بركلة بين ساقيه جعلته يشهق من الألم، أطلق بعدها سبة

بذيئة، وهو يحاول أن يلكم فؤاد الذي تفاده بخفة، ثم هوى عليه بلكمة أخرى حطمت فك المنص وألقته في أقصى الغرفة..

كان فؤاد يتحرك برشاقة وقوة. مستحيل أن يتغلب الفقر والإدمان على الغنى والصحة.

هربت سماح من الشقة تاركة لهم المكان.. عنزة صغيرة، لا مكان لها بين الذئاب، ولم يعبأ بها أحد..

نظر إلى المنص بازدراء وهو يتناول خنجره قائلا بهدوء:

- ليه كده يا منص؟

ثم وقف أمام المنص، الذي راح يتلوى على الأرض ألما مستطردا:

- معلش يا صاحبي... دفاع مشروع عن النفس

قالها ووثب عليه بخفة مدهشة..

تذكر المنص العبارة التي كتبها على حائط السجن ونصل الخنجر يخترق معدته مباشرة

(ظلمت فتظلمت فزاد ظلمي.. العدالة)

الخنجر مزق كل ما في طريقه، الدماء تتدفق من معدته بغزارة، ويشعر بروحه تنسحب من جسده.. شهق من الألم، وحاول أن يلطم فؤاد، الذي تراجع للخلف ساحبا الخنجر إلى الأسفل، ليشق بطنه بالكامل..

المنص يتابع أمعاءه الزرقاء وهي تخرج من بطنه.. ينظر إليها مرعوبا ويحاول منعها من الخروج فتنسل من بين أصابعه. عيناه تتسعان من الصدمة.. يرتعش رعشات سريعة، **قبل أن يسقط بين قدمي فؤاد شاهقا شهقة أخيرة..**

شهقة الموت.

نظر فؤاد إلى جثة المنص باشمئزاز، وإلى ملابسه التي تلطخت بالدماء، ثم ألقى فوقها السكين..

أخرج هاتفه وأجرى اتصالا سريعا بالنجدة، ببلاغ عاجل بما حدث، وبالكمين الذي تم إعداده له. أخرج سيجارة وأشعلها، آكلا أنفاسها في تلذذ، منتظرا قدوم الشرطة.. القتل حقا له متعة ولذة

خرج من الشقة تاركا بابها مفتوح، رائحة الدماء تعكر صفو مزاجه. أمام باب المنزل وقف يكمل سيجارته، غير عابئ بنظرات المارة إلى ملابسه الملطخة بالدماء. أغمض عينيه ناظرا إلى السماء في سعادة.

- فؤاد باشا

فتح عينيه ناظرا ناحية صاحب هذه الجملة.. فوهة مسدس مصوبة مباشرة إلى وجهه، لا تعطيه فرصة لإبداء أي رد فعل، أو حتى للذهول.

انطلقت الرصاصة مباشرة نحوه، فاخترقت عنقه وعبرت إلى الناحية الأخرى.. وبعينين بلغتا أقصى اتساعهما، وامتزج فيهما الرعب بالألم،

سقط على ركبتيه، بينما انفجرت نافورة دماء قوية من عنقه، وأصدر حشرجة مخيفة وهو يهوى على وجهه ممسكا برقبته.. آخر ما رآه هي ابتسامة (عبود) المتشفية، الذي ركب الموتوسيكل قائلا:

- وعلى رأى المعلم منص... اللي ما يقدر عليه الشاكوش يقدر عليه المنشار

obeikan.com

(28)

(أم سارة)

صحيح أن خالد لم يلتق بها من قبل، إلا أن يقينا داخله ترسخ أنها هي.. عارية تماما داخل المقبرة، وقد تحلل جزء من جسدها. عيناها بيضاوتان مائعتان من التعفن، ووجهها من الصعب تمييزه.

احتاج بعض الوقت لكي يستجمع شجاعته ويدخل القبر. الرائحة من الداخل كانت لا تطاق. استعان بمنديل وضعه على أنفه ليحميه -ولو قليلا- من تلك الرائحة.. المشهد من الداخل كان مفزعا.. عظاما كثيرة منثورة داخل المقبرة، الجماجم تخرج من وسط التراب فاغرة الأفواه، صارخة في خالد أن ينتقم لها. دقات قلبه ترتفع، لا يسمع سوى صوت شهيقه وزفيره وإيقاع نبض صدره. يعرف الآن أين هو. إنه حيث القاتل يدفن جثث ضحاياه.

لهث خالد وهو يخرج شاعرا بالهلع، بالكاد أمسك نفسه عن السقوط وهو يهرول، لا يرغب في رؤية المزيد، شاهد ما يكفي. تسلق البوابة من جديد، هذه المرة التوى رسغه أثناء النزول، لم يشعر بتورمه الا عندما هبط على الأرض. ارتمى على ظهره في منتصف الطريق يلهث.

مثل القنبلة دوى رنين الهاتف في جيبه، بدا صوته عاليا جدا أكثر من المعتاد. ابتلع ريقه وهو يرد على مكالمة سلمى، حكي لها ما حدث بشكل مخفف، فقالت بتوتر بالغ:

- أنت قربت قوى يا خالد... خلي بالك من نفسك

- ولا يهمك... أنت فين دلوقتى

- أنا لسه في المركز براجع شوية شغل... في رأيك ممكن القاتل يكون مين؟

- بصي... اولا هو شخص بيسافر كتير، وبطريقة ماتثيرش الشبهات حواليه. ثانيا هو واحد من الدائرة المحيطة بيكى، بدليل إن ماما كانت عارفه. ثالثا ممكن يكون ساكن جنب الجبانة، عشان يقدر يوصل لها بسهولة... فيه حد ممكن تنطبق عليه المواصفات دى

- الوحيد اللي اعرفه ساكن هناك هو الدكتور (عوض)

دوى وقع هذا الاسم في عقله مثل تفجير قنبلة هيروشيما.. عوض صاحب الاتصال الأخير بالمرحومة.. خبرته في المجال الطبي تجعله على دراية تامة بأنواع العقاقير.. عقاقير مثل التي تم حقنه بها.

سألها:

- بيسافر كثير؟

- دائما بيروح يختار أجهزة طبية... وده مثبت في ملفات المركز

- فاكرة تواريخ الحوادث.. المكتوبة في ورق الجرائد اللي لاقيناها في الصندوق

- معايا على فايل في اللاب توب

- عايزك تقارني التواريخ دي بتواريخ سفر عوض... لو انطبقت... يبقى أكيد هو القاتل وممكن ده يكون دليل

صمتت للحظة، لم يسمع خلالها رد، فقال بتوتر:

- سلمى... فيه حاجه؟

أجابته بقلق:

- حاضر... أنا هراجع التواريخ وهبلغك بالنتيجة

أنهى المكالمة، ثم توجه إلى منزل (عوض)

كان على مقربة كما أخبرته سلمى. خمس دقائق تقريبا وكان يقف أمام بابه. يعلم أنه غير موجود، أنوار المنزل كلها مغلقة، دعوة غير مباشرة للاقتحام.

دار حول المنزل دورة كاملة.. تخير نافذة مفتوحة غير مطلة على الطريق. بالرغم من خلو الشارع من المارة، إلا أنه آثر السلامة. تسلق إحدى المواسير، ومنها إلى شباك المطبخ المفتوح. ثوان وأصبح يقف وسط المطبخ، يلهث من الإرهاق.

تحرك بحذر، باحثا عن أي برهان يثبت به كلامه. المنزل غارق في الظلام، ساكن، رائحته غير مريحة على الإطلاق، يشعر بأن هناك شيئا ميتا هو مصدر تلك الرائحة.

دخل إلى غرفة النوم الخاصة به، واسعة يتوسطها سرير عملاق، شاشة بلازما عملاقة في مواجهة السرير، وأسفلها اسطوانات أفلام

بعدد مهول. هذا الرجل يعشق مشاهدة الأفلام بلا ريب.. لا يوجد دليل يمكن أن يفيده.

بحث في بقية أرجاء المنزل.. وصل إلى الدور الأول، أرضيته مصنوعة من الخشب، لديه اعتقاد بان هناك قبو بالأسفل، لماذا الأرضية مصنوعة من الخشب إذا؟ رفع السجاد من على الأرض بحثا عن باب سري..

انتفض من أثر الصوت..

صوت فتح الباب

هناك قادم، إنه هو بالتأكيد

أعاد السجادة إلى مكانها، ثم اختفى خلف أحد المقاعد الكبيرة. عوض يدخل وينير نور الشقة بالكامل. الإرهاق والغضب يبدوان على وجهه.

كان يحمل كيسا ضخما شبه شفاف، بداخله شيء مستدير. وضع الكيس على طاولة صغيرة، ثم صعد إلى الطابق الأعلى..

أدرك خالد أنه سيكتشف وجوده بالمنزل، نسي إعادة الأشياء التي قام بتفتيشها إلى أماكنها..

لقد أخطأ..

هرع نحو الكيس.. يبدو أنه يحوي رأس إنسان..

صوت صراخ عوض من أعلى يأتيه:

- مين اللي في البيت...

ثم دربكة، وصوت يشبه سحب زناد بندقية..

فتح خالد الكيس بسرعة.. إنها رأس..

رأس كرنب

- قف مكانك

عوض يصوب نحوه البندقية.. الرصاصة تمر بجوار عنقه وتحطم مزهرية عملاقة.. يقفز بكل قوته نحو زجاج الشباك، فيحطمه بكتفه، ويسقط على الإسفلت..

لم ينظر وراءه..

متغلبا على آلام كتفه، ركض مسرعا محتميا بظلام الليل.. كان يركض كما لم يركض من قبل. توقف عوض في مكانه.. لقد عرفه.. ردد بذهول:

- خالد!

لهث خالد بشدة وهو ما يزال يجري..

هل كان مخطئا في الشك بالدكتور عوض؟ لكنه يبدو كشخص خطير، من أين أتى بالبندقية، لقد كان يطلقها عليه بلا خوف، مثل شخص اعتاد استخدام السلاح. كانت أفكاره غير مرتبة، مبعثرة على مساحة

ألف ميل، يبحث عن تفسير. كان ذلك حينما توقفت سيارة بجواره، مع صوت مألوف قادم من داخلها:

- خالد... مالك؟... تعال اركب

التفت (خالد) نحوه.. كان المهندس (عمر)

ألقى بنفسه بالداخل بجوار(عمر) وهو يلهث من التعب قائلا:

- الحمد لله انى شفتك يا باشمهندس... عوض... الدكتور عوض

التوتر يبدو على عمر وهو ينطلق بالسيارة:

- اهدا... خد بس نفسك

- عوض قاتل... قتل أمي

قطب (عمر) جبينه وهو يعدل من وضع نظارته قائلا:

- عفت ماتت مقتولة!... انت بتهرج

قص عليه خالد القصة من البداية، حتى وصوله للمقابر ثم منزل عوض، بينما هو ينظر إليه بشك..

شك كبير

...

في تلك الأثناء، كانت سلمى تراجع دفاتر السفريات الخاصة بالمركز، وتقارن بين تواريخ سفر عوض، وتواريخ حوادث الاختفاء.. عقلها كاد أن

obeikan.com

يترك مكانه، خالد بالتأكيد مخطئ.. لا يوجد أدنى تشابه بين التواريخ، وعوض بالتأكيد ليس هو القاتل.. هناك اسم آخر بدا لها غريبا.. اسم الشخص الذي تتفق تواريخ سفره مع تواريخ الاختفاء..

هذا الاسم كما قال خالد هو شخص قريب..

قريب منها..

جدا.

...

جز عمر على نواجذه وهو يلتفت إلى خالد قائلا محاولا الابتسام:

- طيب إذا كانت أختي عرفته... ليه ما مابلغتش عنه؟

أطرق خالد برأسه مفكرا قبل أن يقول:

- بصراحة مش عارف أو..

تردد للحظة، ماس كهربائي ضرب خلايا مخه، وهو ينظر إلى عمر بشك مستطردا:

- أو يمكن كانت مش عاوزه تبلغ عنه

ولسبب ما شعر أن عين عمر تتسع و..

ويتغير لونها.

...

سلمى تقرأ الاسم المكتوب..

كلمات قيلت من قبل تتراص تدريجيا في عقلها:

- كل اللي بيشتغل هنا بيتقال له يا دكتور..

- ده شخص بيسافر كثير..

- قريب منك..

- انتو عائلة بتؤمن بالسحر..

- قتل ليه عظيمة..

- بيخاف من اللي انتى بتخافي منه..

تردد الاسم في نفسها، لكنه خرج رغما عنها عاليا مسموعا:

- خالي!

...

سكت خالد للحظات، دار فيها عقله كطاحونة هواء في قلب عاصفة.. ابتسامة عمر ازدادت اتساعا، وكذلك عينيه.. ينظر كلاهما إلى الآخر.. تلتقي نظراتهم في نقطة تفاهم.

مد خالد يده نحو باب السيارة التي تنطلق بسرعة ضوئية.. الطريق يجرى بلا هوادة، والإسفلت قادر على سحق جسده إن حاول القفز..

obeikan.com

يباغته عمر بطعنة محقن في فخذه.. سيخ من الألم، سائل أزرق شفاف ينطلق في عروقه مثل النار في الهشيم.

كور خالد قبضته وقذفها، لكمة يائسة أطاحت بوجه عمر، وهشمت أسنانه، قبل أن تطير نظارته إلى التابلوه..

السيارة تترنح على الطريق مثل شارب خمر حتى الثمالة..

آخر شيء شعر به خالد هو انحراف السيارة من على الطريق، وهي تكاد أن تنقلب. بعدها أصبح كل شيء ضبابيا و مظلما، ثم تاهت الرؤية تماما من أمام عينيه

...

القلق يقتل سلمى على خالد. تحاول الاتصال به، هاتفه مقتول لا إجابة منه.

لم تجد أمامها مناصا من الاتصال على الدكتور (عوض)، بصوت حاولت أن يبدو متماسكا قالت:

- دكتور عوض

وكأنه كان في انتظار مكالمتها، صاح منفجرا:

- سلمى... شوفتي خالد عمل ايه... كان بيحاول يسرقني

حاولت أن تمتص غضبه قائلة:

- انا بعتذر لك يا دكتور... وهشرح لك كل شيء بعدين... المهم... هو موجود عندك دلوقتى؟

- لا... هرب من الشباك... لكن انا لمحت عربية الباشمهندس عمر بيركب فيها

قالت بتوتر:

- خالي عمر... خالد ركب معاه!

- ايوه... مالك قلقتى ليه... أنا مش عاوز اتصل بالشرطة.. أنا شايف نجيب خالد ونقعد معاه و...

أغلقت سلمى الهاتف، لم تسمع بقية ما يقول..

بأقصى سرعة توجهت نحو سيارتها.. إلى أين؟

إلى منزل عمر!

تعلم أن شخصا قتل أخته لن يتورع عن قتل خالد..

لا بد أن تنقذه حالا..

لابد..

...

- خالد.. خالد.. صوت آت من الجحيم.. طعم دماء يملأ فمه، صداع رهيب ضرب رأسه بلا رحمة عندما فتح عينيه، مئات المطارق يشعر بها

بداخل رأسه تضرب وتسحق بلا هوادة، ألم مبرح مع خيط من الدماء الدافئة في مقدمة رأسه..

للحظة، كان يعجز عن تذكر أي شيء.. لا يشعر بأطرافه أو حواسه.. برودة غريبة تدب في صدره، مع غيمة مظلمة تحيط بعقله.. المكان بارد، يسرق الدفء من الدم!

حاول النهوض من مكانه، ليكتشف انه مقيد إلى طاولة معدنية، بأربعة قيود قوية مثل الأحزمة الجلدية تحيط بأطرافه الأربعة.. قيد خامس حول عنقه يكاد أن يخنقه.. دار بعينيه في الأرجاء، مع عودة شعوره بالمكان والزمان، رائحة طبية تملأ أنفه وتزيد من شعوره بالدوار.

كان في منتصف الغرفة الواسعة، التي يضيئها مصباح صغير بنفسجي اللون، بجواره حوض زجاجي صغير، يشبه أحواض اسماك الزينة، يطفو فيه ثدي امرأة، داخل سائل نصف شفاف، جعله يرغب بالقيء..

العديد من الأرفف الزجاجية تحيط به، تراصت فوقها بقايا الأجزاء الآدمية المحفوظة، والتي ألقى المصباح بظلالها على الجدران، فرسمت عليه أشكالا سريالية مخيفة.

سمع صوتا قريبا منه، فنظر ناحيته.. كان (عمر) يوليه ظهره وهو يتحدث في التليفون بصوت خافت متوتر، غير عابئ باستيقاظه أو محاولته التخلص من القيود.

أنهى المكالمة، ثم التفت إلى خالد وابتسم في سادية دموية، كاشفا عن أسنانه المكسورة.. اقترب منه بهدوء.. هدوء شديد.. أدار المشرط الرفيع بين أصابعه بحركة استعراضية، متلذذا بروية الخوف في عينه.

يعلم خالد أن صراخه سيكون بلا فائدة.. يرى النهاية الأسوأ والأكثر ألما في انتظاره

قال عمر بشماتة:

- من حسن حظك أنى درست التشريح كويس... يعني أقدر اقطع جسمك، وفي نفس الوقت تفضل عايش

ثم امسك ذراع خالد، وأوصل به خرطوما رفيعا، يتدلى من كيس دم معلق..

- ده علشان يعوض الدم اللي هينزل منك. تحب نبتدى منين... أخصيك الأول.. ولا نسيب ده للآخر؟

قال خالد في توتر:

- ليه كل ده؟... ليه بتقتل؟

زاغت عينا عمر وتطاير الزبد من شدقيه وهو يصيح كمن يدافع عن نفسه أمام محكمة:

- من غير سبب... أنا بحب كدا... أمي وأبويا ربونى كويس... وعشت وسط ناس كويسة... بس انا عاوز كدا... كونك تاخد روح إنسانة وتأخذ كل طعمها ولذتها... دى متعة مالهاش مثيل.

لم يكن خالد يملك حق مناقشته، هز رأسه مؤمنا على كلامه قائلا:

- وقتلت أختك ليه؟

- اعمل ايه... المسكينة بالصدفة، قدرت تعرف اللي أنا كنت بعمله على مدار 20 سنة... الغريب أنها طلبت مني اسلم نفسي، أو أسيب البلد... الظاهر كان جواها شوية حب ليا... أخوها بقى

ثم قهقه ضاحكا وأردف قائلا:

- على العموم أنا رديت لها الهدية وليلة الفرح استنتها جنب العربية... حقنة (LSD) وسيبتها مع نفسها تسوق... الأوهام اتكفلت بالباقي... بجد انا حزنت عليها... أنت مش شفتني قد ايه كنت زعلان؟

نظر خالد إلى البقايا الآدمية المحفوظة قائلا:

- لكن أنت بتجمع أجزاء بني ادمين

صاح بجنون:

- ده شيء مش هيفهمه اللي زيك...أنا إنسان فوق الطبيعي...أنا جسد وآلة، لما أحب أموت.. أموت، ولما أحب أعيش.. أعيش، أنا كل شيء.

صوت جرس الباب يأتي من أعلى، ليدرك خالد على أثره أنه داخل قبو.. قبو نسجت به الفظائع. التفت عمر إلى شاشة كبيرة مقسمة عدة أجزاء، بعدد كاميرات المراقبة التي يضعها.. إحداها تظهر عليها سلمى واقفة أمام الباب.

جز على أسنانه حتى قارب على كسرها، وكأن هناك صراعا محتدما داخل عقله، قبل أن يبتسم في تلذذ وهو يضع المشرط جانبا قائلا:

- بنت اختي جت... معلش ثواني... هرحب بيها وارجعلك

ثم خلع المريلة البلاستي، التي كانت يضعها على صدره، وتناول جهازا أسود اللون، يشبه ماكينة الحلاقة الكهربائية، ضغط زرا فيها، فأصدرت صوت صرير كهربائي حاد، وشرارة زرقاء متراقصة، غامزا بإحدى عينيه:

- صاعق كهرباء... احتياط بس

ثم رسم على وجهه قناع الطيبة، وصعد إلى أعلى..

كان باب القبو يقع داخل غرفة مكتبه، أما القبو نفسه فقد كان بكامل مساحة المنزل. عبر من باب المكتب، ثم اتجه للباب وفتح لسلمى.

التوتر كان باديا على وجهها، صافحها بحرارة بيد تعلم هي مدى تلوثها بالدماء. أشار لها بالدخول وهو يمسح تعابير وجهها قائلا:

- اتفضلي يا سلمى

تدلف إلى الداخل وهي تلتفت يمينا ويسارا.. خالد يشاهد ما يحدث على أقسام الشاشة.. ملامح سلمى تفضحها.. لم تقو على النظر في عينيه وهي تقول بكذبه مفضوحة:

- حبيت بس اجي اتطمن عليك.. اصلك مختفي من يوم ما رجعت من اسكندرية

ابتلع الكذبة متظاهرا بالتصديق، ثم قال وهو يدور خلفها:

- معلش شوية مشاغل

يدرك أنها تعلم.. عيناها تفضحانها، مد يده في جيبه ليخرج الصاعق.. خالد يشاهد ذلك.. لا.. لن يسمح به.. يحاول فك قيوده..

القيود محكمة؛ لكن مسامير القيود نفسها كانت تهتز من قواعدها.. ربما يمكن خلعها. حرك يده اليمنى بكل قوته.. المسامير تتحرك من مكانها.. انفجر العرق من جبينه، حتى اختلط بخط الدماء النازل من رأسه.. تعالت أنفاسه حتى كاد يسمع نبضات قلبه بأذنيه.. خوفه على سلمى جعل قلبه يركض وعضلاته تبذل كل ما في وسعها..

انتزع القيد من مكانه، لكنه ظل حول رسغه.. الدماء سالت من رسغه بسبب ما فعل، ربما أحد عروقه قد قطع، فالدماء الكثيفة التي تسيل تدل على ذلك..

لا يهم، أصبح ذراعه الأيمن حرا.. استخدمه في فك ذراعه الأيسر ثم بقية القيود.. يرى (عمر) وهو يفاجئ (سلمى) من خلفها ويباغتها بشحنة كهرباء خلف أذنها، قضت على ثورتها في مهدها، فسقطت فاقدة الوعي. لقد تجاوز الحدود.. الوحش الذي بداخله أصبح طليقا بلا حواجز ونسف كل الخطوط الحمراء وكل مبادئ الحيطة والحذر التي كان يختبئ خلفها.. يراه على الشاشة يحمل سلمى على كتفه عائدا بها إلى القبو.

يلتفت إلى طاولة الأدوات الجراحية، ليبحث بينها عن سلاح يستخدمه، ينتقي مطرقة حديدية، بدت له أفضل فكرة، واختبأ خلف الباب..

كتم أنفاسه وهو يحمل المطرقة في يده.. الباب يفتح.. عمر يحمل سلمى وهو يردد بمرح:

- اتاخرت عليك... معلش حبيت اجمع كل العيلة و...

هوى خالد بالمطرقة على رأسه، فصرخ بألم وهو يسقط سلمى أرضا. التفت ناحية خالد، الذي عاجله بضربة أخرى على وجهه حطمت بقية أسنانه، وجعلته يصرخ صرخة كفيلة بإيقاظ ضحاياه، وفجرت شريانا صغيرا في عينه، وكادت تفجر طبلة أذن خالد، الذي صرخ قائلا وقد تملكته هيستريا الغضب:

- دى عشان كل واحد أنت قتلته

ثم هوى بالمطرقة على ظهره بكل قوته، فسمع صوت تحطم عموده الفقري وهو يستطرد:

- ودي علشان أمي

تحشرج صوت عمر، وحاول أن ينهض، لكن قواه انهارت، ثم سقط على الأرض منتفضا..

هم (خالد) بأن يضربه ضربة أخرى قاتلة، حين سكن بغتة، همد وارتخى جسده، كأن الروح تفر منه سعيدة.. نظر إليه، وإلى الدماء التي تغرق وجهه، قبل أن يتجه إلى سلمى يتحسس نبضها. كانت بخير لكنها

فاقدة الوعي، فساعدها على الاستفاقة والنهوض، واتجها نحو باب الخروج..

كان ذلك حين سمعا ندا استغاثة وبكاء طفلة:

- الحقوني... الحقوني

كان الصوت يأتي من وراء باب صغير، قالت سلمى بوهن:

- سامع يا خالد؟

أسندها إلى الحائط ثم اتجه نحو الباب المغلق بقفل صغير. حطمه بضربه واحدة من المطرقة.. وخلفه كانت..

- سارة!

صاحت سلمى بلهفة وهي تراها من مكانها..

جرت الفتاة ناحيتها، فحملتها بين ذراعيها بحنان..

صراخ مجنون يأتي غاضبا من خلفهم:

- مش هتهربوا... هنموت سوا

كان عمر قد زحف على الأرض، ونزع خرطوم الغا،ز فتناثرت ذراته في الهواء هاربة من محبسها..

نظر إليهم وهو يشعل ولاعة صارخا:

- موتوا

obeikan.com

قفز خالد عليه محاولا منعه.. استطاع أن يمسك بالولاعة قبل أن يقدح زنادها، لكن عمر تشبث بها و به.. الاثنان يتقاتلان سويا قتالا عنيفا.. قتال حياة أو موت.. صاح خالد من وسط اللكمات والدماء التي ملأت فمه:

- خدي سارة واهربوا يا سلمى

حملتها سلمى وهرولت إلى الخارج، صراخ عمر المسعور يطاردها بلا رحمة..

وقفت في الشارع هي وسارة تنتظران خروج (خالد) بقلق وخوف. الوقت يمر ببطء..

تأخر..

تأخر كثيرا..

المكان هادئ مثل النفس العميق قبل الغطس..

نظرت إلى المنزل وجسدها يرتجف بشدة، تدرك أن هناك صراعا محتدما بداخله..

حتى هز انفجار مكتوم المكان بأسره..

القبو انفجر..

صرخت بلوعة:

- خاااالد

obeikan.com

لم يجبها هذه المرة.. احتضنت سارة وهي تبكى بحرارة..

- سلمى

صوته يأتيها كأرق وأعذب لحن في الدنيا وهو يخرج من الباب، الدماء تسيل من أنفه ويده، وقد احترقت أجزاء من ملابسه..

- خالد... اخويا

جرى ناحيتهما بكل لهفة ولوعة الدنيا، واحتضنهما سويا وبشدة. هتفت وسط فيض من الدموع:

- أنت بخير؟

قال بكل حنان وهو يمسح دموعها بيده:

- طول عمري بخير

obeikan.com

خاتمة

رآها تنتزع وردة من طوق الزهور الذي تحمله.. كانت وردة بيضاء.. نقية.. جميلة.. وردة تحمل أزكى عطر في الدنيا.

تناولها منها بسعادة، وهو ينظر إليها في فستانها الأبيض الهادي، ملاكا هبط لتوه على الأرض.. تنظر إليه وملامحها تحمل أجمل ابتسامة حب وشكر.. قبلها على مقدمة رأسها قائلا:

- زي القمر كالعادة يا سلمى

تضرج وجهها بمزيج من حمرة الخجل والسعادة، ثم التفت خالد إلى أحمد الجالس بجوارها في الكوشة مستطردا:

- مبروك

أومأ أحمد برأسه، ثم نظر إلى سلمى في سعادة، وهو يتناول يدها في كفه قائلا:

- الله يبارك فيك

ثم نهض العروسان سويا، وعلى موسيقى إحدى المقطوعات الهادئة دار الاثنان في الأرجاء.. أجنحة حبهما تتحرر أخيرا..

ومن بعيد، وقف خالد يتابعهما ببصره، وشفتاه تخفقان وهو يبتسم.

التماعة فلاش كاميرا تصوير أغشى عينيه للحظات..

حانت منه التفاته إلى أحد الأركان..

obeikan.com

بصره يتوقف أمام أحد أعمدة الإنارة، منتصبا مثل جبل راسخ، وخلفه مباشرة رأى شبح رجل يقف..

رجل يراقب بكل اهتمام وتحفز..

المشهد أعاد به الذاكرة إلى شريط حفل زفاف إيمان. نفس الوقفة، ونفس محاولة الرجل الاختباء من آلات التصوير، والاختفاء وسط الظل..

يتذكر أيضا المكالمة الأخيرة التي كان يجريها عمر في القبو.. وقتها وضح الضيق عليه، وكأنه كان يتلقى التعليمات من شخص ما..

انقبض قلب خالد ولم ينبسط.. حتى العرق انحبس في المسام.. هل يمكن أن يكون هناك قاتل آخر؟.. شريك مجهول؟..

بدأ شبح الرجل ينسحب تدريجيا، ويتحرك نحو بوابة الخروج الجانبية.

هرع خالد يتبعه، غير مبال بما قد يحدث له. وصل إلى باب الخروج، ومنه أصبح يقف وسط السيارات المركونة، بينما قمر الليل يدور حوله بلا توقف.. المشهد الأخير المروع للدكتورة عفت يمر أمامه وكأنه يحدث الآن.. تخرج من نفس باب القاعة، ثم تهرع نحو سيارتها وتمد يديها تخرج مفاتيح سيارتها، وقبل أن تخرجها يأتي شبح مجهول يباغتها من الخلف، ثم يحقنها في عنقها ليتركها بعد ذلك لمصيرها..

سار خالد وسط السيارات متلفتا بحذر والهواء يضرب صدره، بينما قطرات قليلة من المطر راحت تتناثر فوق وجهه. لمس إحدى السيارات بلا قصد، فدوى إنذارها يحطم صمت المكان، أعقبها صوت أقدام تجري مسرعة من ورائه

صرخ خالد مناديا وهو يحاول اللحاق بصاحبها:

- أنت

اختفى الرجل المجهول خلف إحدى السيارات، فدار خالد من الناحية الأخرى ليجد الباب الأمامي للسيارة مفتوحا عن آخره..

هل تكون هذه هي عربته؟

نظر داخلها، ليجد مجموعة متناثرة من شرائط وديع الصافي ملقاة على التابلوه.. ظن لوهلة انه قد حاصر الرجل.. لم يعلم انه كان يسقط في فخ منصوب له بإحكام، إلا حين أحاطه ذراعان قويان فجأة من الخلف، واعتصرا عنقه بقسوة.. قاوم بكل ما يستطيع، لكن القبضة كانت محكمة، والإفلات منها بات شبه مستحيل، وذرات الهواء في صدره تتناقص بسرعة وتكاد أن تنفد..

غير قادر على الصراخ، ضرب بيديه وقدميه الهواء، بينما مهاجمه يجذبه إلى الأرض. في محاولة يائسة منه، قام خالد بقضم ذراع الرجل بكل قواه المتبقية.. صراخ الرجل كاد يفجر طبلة أذنه قبل أن يتحرر عنقه أخيرا، ويسقط الاثنان على الأرض. ولأول مرة، أصبح خالد في

مواجهة الرجل الذي أمسك ذراعه بألم والدماء تسيل منها بغزارة.. كلاهما يراقب الآخر بتحفز.. خالد و...

والدكتور عوض!

قال خالد وهو يبصق الدماء من فمه:

- شريكه... مظبوط؟

هز عوض رأسه قائلا:

- لا... أنا أبوه الروحي ومرشده عشان يكون إله فوق البشر

- أنت وهو مجرد مجرمين، ووجودكم في الحياة مش أكتر من وجود صرصار

- احنا آلهة... فوق البشر... أنا وعمر عرفنا كدا من زمان... تعرف أن أول واحدة قتلتها وأنا في عمر 17 سنة... (عمر) ساعدني وقتها في دفن الجثة... وكبرنا أنا وهو... طعم البنات الصغيرة كان دايما حلو. وقفنا عن القتل فترة... عمر شاف سارة... ساعتها أتهز من جواه... عفت كشفت عمر... يوم الفرح أنا كنت براقب عفت، أما عمر فهو اللي اتكفل بيها.. واتكفلت أنا بعد كدا بسارة وأمها... آه... ذكريات

قالها، ثم اخرج المحقن الكبير وابتسم بشراسة:

- لما انتهي منك أوعدك أن الحفلة الجاية هعملها على جسم سلمى

كان ذلك حين سدد المحقن إلى عنق خالد، الذي قبض على رسغه باستماتة.

تطوح الاثنان حتى ارتطما بنافذة السيار،ة فتهشم وتناثرت قطعه من حولهما كبقايا قنبلة صغيرة. تمالك خالد قوته، ثم أودع عوض لكمة قوية ارتطمت بجانبه الأيمن، وأسقطته أرضا. تبعها بركلة في منتصف ظهره، ثم أطاح بقدمه مره أخرى بين ساقيه، محطما خصيتيه ومفلتا المِحقَن من يده مع الصدمة.

تناول خالد المِحقَن من على الأرض وهو يلهث من الإرهاق:

- خطتك دى فاشلة من قبل ما تبتدى

ثم اغمد المحقن في عنقه وهو يستطرد:

- جرب الموت بقى

السائل ينطلق داخل جسد عوض مثل لدغة عقرب سام، بعدها احتلت الزرقة وجهه.. العرق يعتلي جبهته.. حاول أن ينطق.. فتح فمه بصعوبة:

- سم... الأعصاب... ده... مؤلم... فعلا

خرجت منه مع زبد من جانب فمه، يرمق خالد بعين زائغة، ضائعة، وهو يضعه على مقعد القيادة في سيارته ثم يدير محركها قائلا:

- قابل مصيرك

وانطلقت السيارة تترنح مثل الرجل المخمور، تعبر الطريق في الاتجاه المعاكس، لتأتى سيارة فان عملاقة تدهسها وتسويها بالأرض.

استغرب خالد نفسه والمشهد لا يؤلمه. بل تنفس بارتياح، ثم رفع بصره نحو الشمس التي بدأت تشرق في الأفق من خلف البنايات العالية، وتلقى أشعتها الذهبية على الأرض..

شمس نهار جديد..

وجميل.

تمت

obeikan.com

السيرة الذاتية

الاسم: محمود الجعيدى

كاتب من مواليد مدينة المطرية محافظة الدقهلية عام 1977..

خريج كلية التجارة جامعة المنصورة.. عضو فريق القلم الحر للنشر الأدبي..

فائز في مسابقة دار إبداع بالاشتراك مع مكتبة حروف عن قصة المرأة العجوز..

شارك في المجموعة القصصية فراشات عاشقة.. والمجموعة القصصية ورق كريمي..

شارك في البرنامج الإذاعي (رعب ع القهوة) بقصتين إذاعيتين بعنوان الجلد الملون، دائرة الفزع

opelikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372 011-27772007

obeikan.com